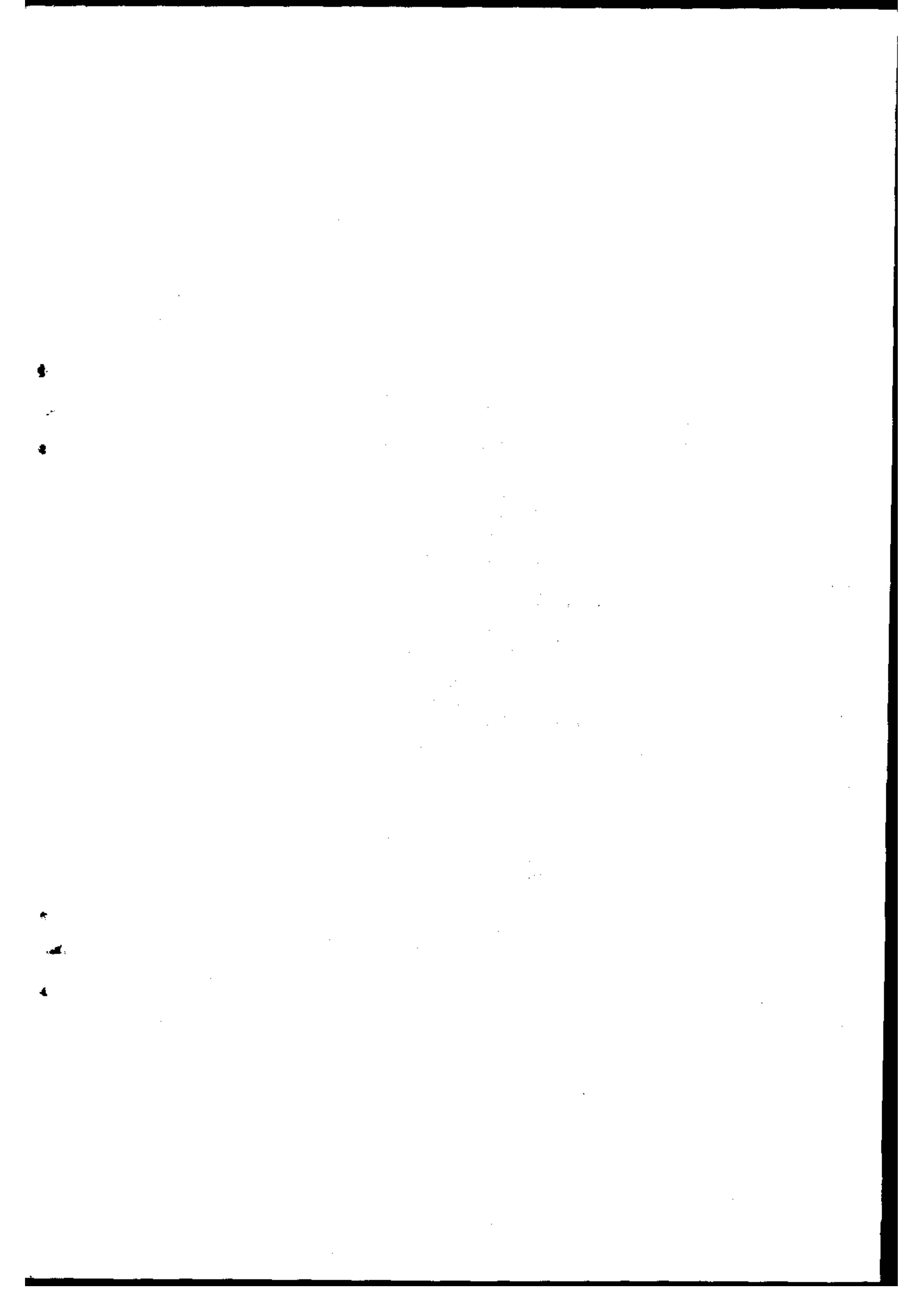
# الفضائل الخلقية
# من
# القرآن الكريم والسنة النبوية

دكتور
حسن محرم الحوينى
أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة
بكلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر





بسم الله الرحمن الرحيم

## المقدمة

استعنت بالله وأمليت هذه المحاضرات فى الأخلاق العملية، فانتقيت ماشاء الله لى أن أنتقى فيها من الفضائل التى لها رصيدها الكبير والثرى فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومأثور السلف من الصحابة والتابعين، والأئمة المتبوعين فاتجهت بفضل الله إلى هذه المنابع الطيبة، أنهل من صافى معينها، وارتوى من طيب شهدها.

وكان نهجى فيما أمليته من ذلك:

أن أوضح فى البدء معنى ماأتناوله من هذا الخلق أو ذاك فى أصله اللغوى بما جادت به معاجم اللغة، مؤثراً فى ذلك سبيل الانتقاء،

ثم أثنى بذكر الأصل القرآنى للفضيلة موضوع الدراسة وحصر المواضع التى أشار إليها القرآن فيها إجمالاً وفضلت أن أختار أجمع الآيات القرآنية فى موضوعها مركزاً فى تبيان معنى الفضيلة التى وردت فيها الآية والتى اخترتها موضوعاً للدراسة على مأثور التفسير الذى ورد عن علماء السلف، ثم ماجادت به قرائح المفسرين المشهورين من علماء الخلف.

وما يمكن أن يتفرع على ذلك من المعانى، والأفكار التى يمن الله علىَّ بها.

ثم أعقب ذلك بما يمكن أن أجنيه فى الموضوع من أطايب ثمار السنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ومأأفاء علينا شراحها من العلم والمعرفة.

وإنى عازم إن شاء الله على مواصلة الإملاء فى هذا الباب كل ما واتتنى الفرصة، وكل مايسر الله لى ذلك وكل ماأرجوه من الله أن يكون فى هذا العمل مايعود على طلاب العلم بالنفع والفائدة، ومايعود علينا بالآجر والمثوبة فى مساء الأربعاء السادس من محرم عام ثلاثة وعشرين وأربعمائه وألف.

**والله ولى التوفيق**

**تحريراً فى ٢٠ مارس ٢٠٠٢م**

**أ.د/ حسن محرم**

## الحكمة

من الفضائل العملية التى نبه إليها القرآن والسنة النبوية الصحيحة فى غير موضع من كليهما، ودعا إليها كل منهما فضيلة الحكمة.

ولكننا قبل أن نمر على مواضعها فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ينبغى علينا ان نرجع إلى أصل الكلمة فى اللغة العربية التى نزل الوحى المحمدى قرآناً وسنة بها،

وذلك كى نتبين الصلات الوثيقة بين معانى الكلمة اللغوية وبين معانيها القرآنية والحديثية.

**١) المعنى اللغوى:**

وقد انحصرت معانى الحكمة من حيث اللغة فيما يأتى:

(أ) جاءت الحكمة بمعنى العدل: يقال رجل حكيم إذا أريد أنه عدل فى حكمه.

(ب) والحكمة تكون بمعنى الإتقان، إذا قيل أحكم الرجل الأمر حيث أتقنه ومن ذلك المثل القائل (أحكمته التجارب) إذا جعلت التجارب ودربتها إتقان الرجل للعمل كأنه طبيعة وملكة له، ولذا يطلق على الشخص المتقن للأمور إنه حكيم، أو يوصف بأنه حكيم إذا كان متقناً للأمور.

(جـ) كما تطلق الحكمة على الأمر الذى يمنع الرجل عما يضره فى دينه ودنياه، ومن ذلك مايقال (استحكم الرجل إذا تناهى عما يضره فى دينه أودنياه).

( د) كما وردت الحكمة بمعنى منع الشئ من الفساد فيقال (حكم الشئ وأحكمه كلاهما، منعه من الفساد، قال الأزهرى: وروينا عن إبراهيم النخعى أنه قال: حكِّم اليتيم كما تحكِّم ولدك أى امنعه من الفساد وأصلحه كما تصلح ولدك وكما تمنعه من الفساد. قال: وكل من منعته من شئ فقد حكمته وأحكمته).

وسميت حكمة الدابة بذلك لأنها تمنعها من الشطط والمخالفة.

وهذه المعانى للمادة المذكورة وردت كلها فى لسان العرب ولم يخرج عنها ابن منظور فى بحثه حول هذه المادة.

(هـ) ولكن يضاف إلى ماسبق من معانى الحكمة أنها جاءت بمعنى الإصابة فى الاعتقاد والقول والعمل.

( و) وان من معانيها أيضاً مايشهد العقل بصحته.

( ز) ومنها كذلك أنها نور يفرق الشخص به بين الإلهام والوسواس.

(ح) ومنها أيضاً سرعة الجواب بالصواب.

(ط) ومنها القدرة على وضع الشئ فى موضعه.... الخ.

## المعنى الاصطلاحي:

وبعد هذه المحاولة السريعة لبيان المعانى اللغوية للفظ الحكمة ننتقل إلى بيان معانى اللفظ التى أوحت بها سياقات النص القرآنى فى ماورد فيه اللفظ من أيات القرآن المختلفة مقترنة هذه الآيات الكريمة بالأحاديث النبوية التى عرضت للفظ الحكمة من مظانها المتعددة. وقد ورد لفظ الحكمة فى عشرين موضعاً من القرآن الكريم عدا ما اشتق منها من ألفاظ الحكيم والمحكم وغير ذلك، وقد قيل: إن معانى الحكمة فى ضوء السياق القرآنى قد بلغت تسعة وعشرين معنى وإن كان بعضها قريباً من بعض، ولنقرأ فى هذا المقام على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾(١).

فما المراد بالحكمة فى الآية الكريمة التى يؤتيها الله من يشاء من عباده؟ وبمحاولة تقصى مايراد من لفظ الحكمة هنا فى أقوال المفسرين من السلف والخلف، وجدناها لاتتجاوز المعانى والمفاهيم الآتية:

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٦٩).

(أ) ففى أحد قولين لابن عباس ﷺ ﴿أن الحكمة هى المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله﴾.

ولاريب أن هذه المعرفة الجامعة بالقرآن وعلومه وأحكامه تمكن صاحبها من إصابة الحق في الاعتقاد والقول والعمل وهو عين الحكمة. وثانى القولين عن ابن عباس - الذى حظى ببركة دعوة النبىﷺ بأن يعلمه الله الكتاب والحكمة والفقه والتأويل - [أن الحكمة هى الفقه فى القرآن].

ومعنى الفقه فى القرآن: أن يقف المرء على مافى القرآن من أوجه الهداية وطرقها وأدلتها، وأن يعلم مافيه من الأحكام وأسرارها ومقاصدها؛ فإن لذلك أقوى الأثر على إصلاح النفس وتهذيبها حيث يحظى مثل ذلك الشخص بالقدرة والتمكن من التمييز بين مايعترى النفس من الأوهام والحقائق، ومن الإلهام والوساوس، فما أكثر ماتحول الأوهام والوساوس بين الشخص وبين الوصول إلى الحق.

ويذكرون عن ابن عباس فى رواية أخرى قوله: [إن الحكمة هى النبوة] ويرى الشيخ الألوسى فى تفسيره للآية المذكورة أن قول ابن عباس هذا محمول على معنى الفقه فى القرآن لما أخرج البيهقى عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ ثلث

القـرآن أعطى ثلث النبـوة، ومن قـرأ نصف القـرآن أعطـى نصف النبـوة، ومن قـرأ ثلثـيـه أعطـى ثلثى النبـوة، ومن قـرأ القـرآن كله أعطى كل النبوة، ويقال له يوم القيامـة اقرأ وارق بكل آية درجـة حتى ينجز مامعه من القرآن، فيقال له اقبض فيقبض فيقال له هل تدرى مافى يديك؟ فإذا فى يده اليمنى الخلد وفى الأخرى النعيم».

وليس المراد هو مـجـرد القـراءة للقـرآن على مـاهو ظاهر الحديث المذكور، بل يجب أن يكون المراد قراءة القرآن بفقه وتدبر، فـإن مـجـرد القـراءة يشـتـرك فـيـهـا البر والفـاجـر، ويؤيد هذا مـا أخـرجـه ابن أبى حـاتم عن أبى الدرداء «الحكمـة قـراءة القـرآن والفكرة فـيـه»، وغنى عن البـيـان هنا أن من قـرأ القـرآن وفـقـهـه لايكون قـد أوتى النبوة على سـبيل الحـقيقـة ولكنه قد أوتى ثمـرة النبوة وأثرها العظيم.

وثمـة رواية عن السـدى ذكـرهـا ابن كـثـيـر فى تفـسيـره: أن «الحكمـة هـى النبوة» ويعقب ابن كثير على ذلك بقوله: (والصـحيح أن الحكمـة - كـمـا قال الجـمـهور - لاتـخـتـص بالنبوة، بل هـى أعم منها وأعلاها النبوة).

(ب) ومن الأقـوال التى تناولت مـعنى الحكمـة فى الآية الكريمة مـاروى عن مـجـاهد (أنـهـا الإصـابة فى القول والعـمل) والمراد إدراك الصـواب فى القـول والعمل فـى القول والعـمل، ولايـجـافى

هذا المعنى ماذكر عنه فى رواية أخرى أن الحكمة هى (القرآن والعلم والفقه) ولاشك أن من منحه الله ذلك فقد أصاب لامحالة الحق فى القول والعمل، ولاينفصل عن ذلك السياق قوله الآخر فى رواية ثالثة إن الحكمة هى (العلم الذى تعظم منفعته وتجل فائدته).

(جـ) وعن بعضهم أن الحكمة هى (خشية الله).

ومن المعلوم أن خشية الله والخوف منه يبعث النفس على تحرى الصواب فى القول والعمل، ويدفع الانسان إلى أن يضع دائماً الأمور فى نصابها، ويستدل أصحاب هذا القول فى معنى الحكمة بما روى عن ابن مسعود مرفوعاً «رأس الحكمة مخافة الله».

( د) وعن بعض السلف أيضاً فى معنى الحكمة أنها السنة، ولاريب أن النبى ﷺ وهو خير الحكماء قد أوتى القرآن، ومثله معه، ليبين للناس بسننه المطهرة ماخفى عليهم من مرامى القرآن، ويفسر لهم ماأجمل من أحكامه ويقيد لهم ماأطلق من دلالاته ومعانيه حتى يلزم الناس الحجة ويفتح لهم أبواب الهداية والنجاة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴿٤٦﴾ ﴾(٢).

---

(٢) سورة الأحزاب الآيتان (٤٥ - ٤٦).

والحق أن من أكرمه الله بتحصيل السنة وعلومها، وألم بكتبها ومصنفاتها، وحفظ ماشاء الله له أن يحفظ من متونها ونصوصها، وكان على وعي كامل بصحيحها وسقيمها، ووقف على طرقها وأحوال رجالها ورواتها، وأشرقت على قلبه وعقله أنوارها، فقد قبض على أزمة الحكمة وهدى إلى طريق الحق فى كل مايأتى وكل مايدع.

والمستقصى للآيات القرآنية الكريمة التى تضمنت أن النبى بعث إلى أمته ليعلمهم الكتاب والحكمة، أدرك أن السنة هى المرادة من الحكمة فى كل هذه الآيات على ماأطبق عليه معظم المفسرين ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(٥).

---

(٣) سورة البقرة الآية (١٢٩)

(٤) سورة البقرة الآية (١٥١).

(٥) سورة آل عمران الآية (١٦٤).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾(٦).

وقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾(٧).

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(٨).

فى كل هذه الآيات - كما أشرنا من قبل - أريد من لفظ الحكمة فيها السنة المطهره على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

(هـ) وفسرت الحكمة في الآية ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩) ﴾(٩) أيضاً بالعقل.

وللأستاذ رشيد رضا فى توجيه هذا المعنى كلام طيب نقله عن الأستاذ الإمام محمد عبده فى تفسير المنار عند تفسير الآية التى نحن بصددها.

---

(٦) سورة النساء فى الآية (١١٣).

(٧) سورة الاحزاب الآية (٣٤).

(٨) سورة الجمعة الآية (٢).

(٩) الآية (٢٦٩) من سورة البقرة التى جعلناها محوراً لتفسير وبيان الحكمة.

ومن هذا الكلام أن الأستاذ الامام قال: (والمراد بايتائه الحكمة من يشاء اعطاؤه ألتها - العقل - كاملة - مع توفيقه لحسن استعمال هذه الآلة فى تحصيل العلوم الصحيحة.

فالعقل هو الميزان القسط الذى توزن به الخواطر والمدركات، ويميز به بين أنواع التصورات والتصديقات فمتى رجحت فيه كفة الحقائق طاشت كفة الأوهام، وسهل التمييز بين الوسوسة والإلهام).

وهكذا فإن العقل هو آلة العلم الباعث للإرادة إلى العمل النافع الذى يتغيى الخير ويهدف إلى الحقائق التى تصلح بها حياة الإنسان فى دنياه وأخراه.

ولا أدل على نعمة العقل ونفعه العميم من حض القرآن والسنة للمسلمين إلى التعويل عليه فى معرفة الله، ومايجب له من الكمالات، ومايستحيل على ذاته المقدسة من النقائص، وذلك بالنظر فى آثار القدرة الإلهية والآيات الدالة على وحدانيته سبحانه.

والكون حافل بها، وعلى العقل أن ينقب عنها، ويجعل منها مصابيح هادية إلى الحق فى معرفة علاقة هذا الكون بصانعه ومدبره الحكيم، ولاشك أن ذلك من أجل أنواع الخير الذى يترتب على من منحه الله نعمة العقل، الذى يهدى إلى العمل النافع بما يحصل من العلوم الشريفة العالية.

ومن هنا كان المهمل لعقله المعرض عن استخدامه فى اكتساب الحقائق وتحصيل المعارف بركونه إلى تقليد الغير فى قضايا الإيمان الكبرى ولاسيما معرفة الله وصفاته... أقول من كان هذا شأنه فى حرمانه من العقل وثمرته فإنه لاشك قد حرم الخير الكثير الذى من الله به على من آتاه الحكمة وفصل الخطاب.

وصدق الله العظيم إذ يقول «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ومايذكر إلا أولوا الألباب».

أى لايصل إلى منافذ الخير ولايدرك أسبابه إلا ذووا العقول النيرة.

### الحكمة منهج للدعوة:

( و) وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ بأن تكون الحكمة من أهم عناصر الدعوة إلى الإسلام وبيان ذلك فى قوله تعالى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن»[١٠] والناظر فى تضاعيف هذه الآية يجد أن عناصر الدعوة التى وجه الله النبى ﷺ إليها هى الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتى هى أحسن.

---

(١٠) سورة النحل فى الآية (١٢٥).

وهذا هو المنهج الأمثل فى كل دعوة إلى الله فى كل زمان ومكان؛ لأنه المنهج الإلهى الذى أمر النبى ﷺ باتباعه فى الآية الكريمة.

ولاريب أن أنواع المدعوين إلى الإسلام الذى عبر عنه فى الآية بسبيل الرب. تختلف بإختلاف عناصر المنهج الثلاثة، فالدعوة بالحكمة مستقبلوها، وللدعوة بالموعظة الحسنة مستقبلوها، وكذلك للدعوة بالمجادلة بالتى هى أحسن مستقبلوا، فما المراد من الحكمة؟ وما المراد بالذين هم محل تلقى الدعوة بها؟.

يجيب عن هذا التساؤل الشيخ الألوسى فى تفسيره الموسوعى المسمى بروح المعانى.

المراد بالحكمة (هى المقالة المحكمة وهى الحجة القطعية المزيحة للشبه).

أو هى الكلام الصواب الواقع من النفس أجمل موقع على ماينقله عن صاحب البحر، والمعنيان متقاربان).

وما المراد من العنصر الثانى من عناصر المنهج الذى اختاره الله للدعوة إلى الإسلام وهو - كما ذكرنا من قبل الموعظة الحسنة؟ ونعود للشيخ الألوسى بما فسر به هذا العنصر فقال: والموعظة الحسنة: (وهى الخطابات المقنعة والعبر النافعة التى لايخفى عليهم أنك تناصحهم بها).

وأما العنصر الثالث من عناصر المنهج الإلهى للدعوة إلى الله فهو المجادلة بالتى هى أحسن، ويراد به المناظرة بالطريقة التى هى أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين واختيار الوجه الأيسر واستعمال المقدمات المشهورة تسكيناً لشغبهم وإطفاءاً للهبهم كما فعله الخليل عليه السلام.

وتعتبر هذه العناصر الثلاثة طرقاً مختلفة لدعوة النبى ﷺ لكل طريقة منها - كما أشرنا من قبل - مرتبة ملائمة من الناس المتلقين للدعوة.

فالدعوة بالحكمة القائمة على البراهين اليقينية، إنما توجه إلى الخواص من الناس الذين تميزوا بملكات عقلية تمكنهم من قبول المعقولات والأمور الكلية، ومن الانجذاب إلى إدراك المبادئ العالية، وهؤلاء يواجهون فى دعوتهم إلى الله ببراهين العقل اليقينية وبخاصة إذا تعرضت قلوبهم وعقولهم لشئ من الوساوس والشبه التى تحتاج أزالتها ويقتضى اجتثاثها المواجهة بالبراهين القطعية.

وأما الدعوة بالموعظة الحسنة إنما تكون لطائفة العوام الذين قصرت نفوسهم عن إدراك المعقولات؛ لأنها جبلت على إلف المحسوسات وليس العناد من طبيعتهم فاكتفى فى دعوتهم إلى الله بالأساليب الخطابية والعبارات المقنعة المؤثرة، وبيان العبر من حوادث الأمم السابقة، والتوجيه إلى انتظار حسن الجزاء.

أما الدعوة بالطريقة الثالثة وهى المجادلة بالتى هى أحسن فإنما تلائم طائفة المعاندين والمجادلين الذين تأسست عقائدهم على تقليد الأباء وتشبثوا بكثير من العقائد الباطلة التى تمكنت من عقولهم وقلوبهم.

وهؤلاء مع ذلك ينبغى أن يتبع فى دعوتهم ضروب من اللين والرفق وعدم المواجهة العنيفة بتسخيف عقائدهم وتسفيه عقولهم حتى لاتكون ردود الأفعال على هذه الدرجة من العنف والمخاصمة، فيزداد عنادهم ويشتد تعصبهم.

ومن هنا امتدح الله تبارك وتعالي منهج النبى ﷺ فى مثل هذا المقام حيث قال مخاطباً نبيه ﷺ بقوله ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(١١).

وحين وجه الله موسى وهارون عليهما السلام إلى دعوة فرعون إلى الإيمان بالله والدخول فى دينه مع عتوة وشدة كفره قال لهما سبحانه: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾(١٢).

ويضاف إلى ذلك أنه لابد من أن يستخدم الداعية – مع مثل هؤلاء المعاندين والمجادلين بالباطل من أصحاب هذا النوع –

---

(١١) سورة آل عمران (١٥٩).

(١٢) سورة طه الآية (٤٤).

الأساليب الجدلية والأقيسة التى تتكون من مقدمات مشهورة مسلمة عندهم بحيث لايستطيعون إنكارها، وبالتالى فإنهم لايستطيعون إنكار النتائج المترتبة عليها، وقد كان هذا هو منهج الخليل إبراهيم عليه السلام فى دعوة قومه من الوثنيين وعباد الكواكب كما جاءت بذلك آيات سورة الأنعام[١٣].

وبعد فإن هذه المعانى للفظ الحكمة التى عرضناها فى هذا المبحث المختصر، هى بعض ماأورده المفسرون والعلماء.

والحق أنها تشير إلى مصطلحات لما يعتقده كل مفسر على حده من معنى الحكمة.

وإنها لتندرج جميعها تحت مفهوم الحكمة الذى يسعها جميعاً إندراج الأنواع تحت الجنس.

***التعريف الجامع للحكمة:***

ويمكن أن تعرف الحكمة هذا التعريف الجامع بأنها:

( أ) اسم مصدر مأخوذ من الإحكام، وهو الاتقان فى الاعتقاد والقول والعمل.

(ب) وتعرف أيضاً بأنها هى العلم الذى يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ماهى عليه فى الوجود بقدر الطاقه البشرية.

---

(١٣) راجع الآيات من سورة الأنعام (٧٦ - ٧٩).

فبأى التعريفين أخذنا فإننا نستطيع أن نطبقه على ماسبق من الأمثلة وعلى غيرها مما اكتفينا عنه بالبعض.

**الحكمة من 'لسنة:**

( أ) ويرشدنا النبى ﷺ إلى مكانة الحكيم وهو الذى يتعاطى الحكمة علماً وعملاً وتعليماً فهو رجل مرموق المنزلة مغبوط على ماآتاه الله من الحكمة، بحيث يأمل كل مسلم فى أن يصل إلى مقامه ودرجته، وذلك حيث يقول النبى ﷺ فيما رواه عنه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه – قال: قال النبى ﷺ «لاحسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلُط على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها» .

(ب) والحكمة بإعتبارها اسماً جامعاً لانطباقها على كل علم نافع سواء كان فرض عين كما هو الشأن فى كل علم دينى أو كان فرض كفاية كما هو الشأن فى طلب العلوم اللازمة لتحقيق المنافع الدنيوية.

أقول: الحكمة بهذا الاعتبار هى مطلوب المؤمن يسعى بكل جد لقتناصها فى كل زمان ومكان، وهذا ماأرشد إليه النبى ﷺ فى قوله معترضة من حديث أبى هريرة رضي الله عنه :«الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»**والله أعلم.**

## العــدل

الفضيلة الثانية من الفضائل العملية كما صورها القرآن والسنة «العدل»:

١) وإنا لبادئون إن شاء الله ببيان المعنى اللغوى للكلمة، وباستقصاء ماتدور حوله فى معاجم اللغة وجدناها تكاد تنحصر فى المعانى الآتية:

( أ) فى كل من لسان العرب والقاموس المحيط: العدل ضد الجور، وماقام فى النفوس أنه مستقيم.

(ب) عدل القاضى فى حكمه إذا حكم بالقسط.

(جـ) والعدل الإنصاف: وهو إعطاء المرء ماله وأخذ ماعليه.

( د) وفى المعجم الوسيط: العدل والعادل ويقال للواحد وغيره ويقال امرأة عدل وعدلة، والعدل: المثل والنظير، والعدل: الجزاء، والعدل الفداء، وفى التنزيل: «ولايقبل منها عدل» جمعه أعدال.

ولايغيب عن فطنتك أيها القارئ النجيب أننا نبدأ ببيان المعنى اللغوى لأنه هو الأصل فى مثل هذا المقام، ولوثاقة الصلة بين المعنى الاصطلاحى والمعانى اللغوية، وإن كان الأول أخص من الثانى دائماً.

وإذا أردنا محاولة تبيان المعانى التى إكتنفت الكلمة فى القرآن الكريم وجدنا:

**أولاً**: أن الكلمة قد وردت فى القرآن فى ثلاثة عشر موضعاً، يمكنك الوقوف على ذلك بمطالعة الكتب التى تقوم بحصر كلمات القرآن وحصر مواضعها فى عدد منضبط، ومنها كتاب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

ولكننا سننتخب من المواضع التى ذكرت فيها الكلمة ماتدعو الحاجة إليه.

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(١٤).

وكما هو واضح من هذه الآية أن فضيلة العدل من الأمور التى أمر الله بها نبيه ﷺ ليحققه ويقيم عليه حياة أمته فى كل شأن من شئونها.

فالعدل ميزان رقى الأمم وتقدمها، والقاعدة التى يستقيم بها توازن الحياة ويستقر نظامها.

وبيان ذلك يتمثل فى إبراز معنى لفظة العدل الواردة فى الآية المذكورة، وقد أورد المفسرون لها معاني مختلفة، أدقها وأضبطها ماقرره الألوسى فى تفسيره للآية. ومضمون كلامه فى ذلك أن العدل هو مراعاة التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط،

(١٤) سورة النحل آية: ٩٠.

وذلك في كل شأن من شئون الحياة. ولذلك يقول الشيخ الألوسى (وهو - أى العدل - رأس الفضائل كلها) ويسوق أمثلة تطبيقية للأمور التى يتحقق فيها العدل، حيث وقعت موقع التوسط الدقيق بين طرفى الإفراط والتفريط ومن ذلك فى باب الفضائل.

( أ) فضيلة القوة العقلية المتمثلة فى الحكمة التى تتوسط بين العبقرية والبلادة.

(ب) وفضيلة القوة الشهوية المتمثلة فى العفة التى تتوسط بين إفراط الخلاعة وتفريط الجمود.

(جـ) وفضيلة القوة الغضبية المتمثلة فى الشجاعة التى تتوسط بين التهور وهو إفراط وبين الجبن وهو تفريط.

( د) ومثال العدل فى باب الإعتقاد - عقيدة التوحيد - إذهى وسط بين التعطيل ونفى الصانع من جهة كما هو مذهب الدهرية أو بين التعطيل والشرك كما هو مذهب الثنوية والوثنية وقد يضيقون مثالاً آخر فى باب الاعتقاد وهو الكسب حيث كان وسطاً بين الجبر والقدر.

(هـ) ومثال العدل فى العمليات أو فى الأحكام العملية: التعبد بأداء الواجب إذ هو متوسط بين إبطال العبادة من جهة - كما ذهب إليه الملاحدة من أنه لافائدة فيها؛ لأن الشقى والسعيد متعينان فى الأزل، وبين ترك المباحات تشبهاً بالرهبان.

( و) ومثال العدل فى الأحكام الخلقية الجود المتوسط بين البخل والتبذير.

وقد عد القرآن من صفات عباد الرحمن أنهم﴿ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾[١٥] وهذا القدر كاف فى تفسير معنى العدل وبيان حقيقته وهو الأليق والأقرب إلى الأصل اللغوى للكلمة.

فالعدل: من الاعتدال، والاعتدال هو التوسط فى كل الأمور بين طرفى الإفراط والتفريط كما سبق.

**امثلة من معانى العدل المأثورة:**

ومن أمثلة العدل التى أشارت إليها المعانى المأثورة عن مفسرى السلف.

( أ) ماورد عن ابن عباس ﷺ من تفسير العدل فى هذه الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ ﴾[١٦] وفى كل موضع يتفق معها فى السياق بأنه «لا إله إلا الله» وهو بطبيعة الحال التوحيد الذى نوهنا به سابقاً فى تحديد معناه.

---

(١٥) سورة الفرقان فى الآية (٦٧).

(١٦) الآية (٩٠) من سورة النحل.

(ب) ويؤثر عن بعضهم أيضاً أن العدل معناه الفرض أو بعبارة أخرى كل مفروض من العقائد والشرائع، وقيل: عن بعضهم إن العدل ترك الظلم، وأنه الإنصاف، وأنه إعطاء الحق.

(جـ) وعن سفيان بن عيينه أن العدل في هذا الموضع: استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً.

**العدل فى الحكم:**

والعدل فى الحكم من الأمور التى أكد القرآن على وجوبها وأمر الله كل من يلى أمراً من أمور المسلمين أو نصِّب للفصل بين المتخاصمين وأصحاب الحقوق مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيراً﴾(١٧).

وقد أمر الله تعالى به ليكون ركناً من أركان الأمان والاستقرار فى الدولة الاسلامية.

ويعنى العدل فى الحكم الذى أوجبه الله على أئمة الأمة وقضاتها التسوية فى الحكم بين المتخاصمين والمماثلة بينهما دون ترجيح لأحدهما على الآخر وذلك قدر الطاقة البشرية بحيث يتحقق إنصاف المظلوم وإيصال الحق إلى مستحقه، وهذا المعنى

(١٧) سورة النساء الآية (٥٨).

يتناسق مع المعنى الأصلى فى اللغة للفظ العدل بل هو مستمد منه، فإن تحرى الحاكم بين المتخاصمين للمساواة والتماثل بينهما أشبه بمن يسوى بين العدلين على ظهر البعير.

ولاشك أن الحكم بما يثبت فى الكتاب والسنة من مقتضيات العدل ولوازمه.

فإن كل ماشرعه الله سبيل إلى تحقيق التوازن فى نظام الحياة وتحقيق الإنصاف بين الناس بإعطاء كل ذى حق حقه ولذلك كان على القاضى فى فض الخصومات كما يروى عن الإمام الشافعي أن يسوى بين الخصمين فى خمسة أشياء: فى الدخول عليه، والجلوس بين يديه والإقبال عليهما، والاستماع منهما، والحكم عليهما.

والواجب عليه أن يسوى بينهما فى الأفعال دون الميل القلبى، فإنه لايمكن التحرز عنه، ولذلك كان يقول النبى ﷺ فى القسم بين زوجاته وهو مثال العدل والانصاف - «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤخذنى فيما تملك ولا أملك».

ولا ينبغى أن يضيف القاضى أحد الخصمين دون الآخر لأن ذلك يكسر قلب الآخر، ولايجيب هو إلى ضيافة أحدهما ولا إلى ضيافتهما ماداما متخاصمين، وروى أن النبى ﷺ «كان لايضيف الخصم إلا وخصمه معه».

## السنة ومنزلة الامام العادل عند الله:

أخبر النبى ﷺ بالمنزلة الرفيعة والمكانة السامية للإمام العادل عند الله، ومايننتظره من الجزاء الأوفى الذى يليق بهذه المنزلة.

( أ) الامام العادل أحد السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لاظل إلا ظله، كما ورد فى حديث أبى هريرة المتفق عليه.

(ب) والامام العادل أيضاً أحد الثلاثة الذين لاترد دعوتهم عند الله، من حديث أبى هريرة أيضاً الذى رواه أحمد، والترمذى وحسنه وابن ماجه، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما.

(جـ) والمقسطون الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وماولوا يكونون على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين. كما رواه مسلم والنسائى بسنديهما عن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعاً.

( د) وتعلى السنة الصحيحة من شأن العدل وتسمو بقدر الإمام العادل فتقرر أن عدل ساعة أفضل من عبادة ستين سنة وتذكر رواية أخرى أن عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنه ولاتعارض بين الروايتين، فإن المقصود هو التنويه بقيمة العدل دون التعويل على مقدار الزمن.

فإذا تحقق العدل فلا يهتم بقدر الزمن الذى يحدث فيه ولا بمقداره. **واللهأعلم**

## فضيلة العفة

وفضيلة العفة من الفضائل التى وجه إليها القرآن ودعت إليها السنة، ووعد كل منهما المؤمنين بالأجر العظيم والجزاء الأوفى فى الدنيا والآخرة. وذلك لما تحققه هذه الفضيلة من تكوين الشخصية القوية للفرد المسلم، بحيث يكون جديراً بمواجهة أعباء الحياة ومفاجآتها، وذلك من حيث إنه إنسان تذرع بالجلد وتحصن بالصبر، فلم يطلق لشهواته العِنان فتلتهم نفسه كل ماترغب فيه من حلال أو حرام.

ولا شك أن فى وجود الفرد المؤمن الذى يتميز بهذه الشخصية القوية بسبب ماتحلت به هذه الشخصية من العفة عن محارم الله، وجود للجماعة القوية التى يحتاج إليها النظام الإسلامى فى تحقق استقراره وتمكنه.

ولكن ماالمراد بالعفة؟

### ١) المعنى اللغوى للعفة:

إن الباحث فى معاجم اللغة يجدها لا تكاد تختلف عما قاله ابن منظور فى لسان العرب فى معنى هذه الكلمة الصغيرة فى الحجم والكبيرة فى المضمون.

فقد ذكر فى هذه المادة: أن العفة هى: الكف عما لايحل ولا يجُمل وهى مصدر للفعل: عف عن المحارم والأطماع الدنية كالعفف

والعفاف والعفافة، والاستعفاف طلب العفاف، لأن الهمزة والسين والتاء تكون للطلب في كل وزن استفعل، وهو الكف عن الحرام وعن سؤال الناس ومعناه أن من طلب العفة وتكلفها أعطاه الله إياها.

وقيل: الاستعفاف: الصبر والنزاهة عن الشئ ومنه الحديث: اللهم إني أسالك العفة والغنى، والحديث الآخر فإنهم – ماعلمت – أعفة صبر – والأعفة: جمع عفيف ورجل عف وعفيف والأنثى بالهاء وجمع العفيف أعفة وأعفاء ....

**المعنى الاصطلاحي للعفة:**

وبعد تسليط الضوء على بعض المعاني اللغوية للكلمة نطلب الآن الكلمة ومعناها وأسبابها ومقاصدها في القرآن والسنة يقول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾(١٨).

ومضمون هذا القدر من الآية على وجه الإجمال أن الله يوجه غير القادرين على مؤنه الزواج وتكاليفه الباهظة – كما هو الشأن في هذه الآيام – أن يطلبوا العفة وذلك بتحصيل أسبابها والتعلق بوسائلها والإصرار على ذلك حتى تصير خلقاً له وملكة فيه، ومن استطاع أن يفعل ذلك وعده الله بأن يمنحه الغنى بالله

---

(١٨) سورة النور في الآية (٣٣).

والغنى عن الناس، بالرضاء والقناعة وبالمال الذى يحقق له مطلبه ومآربه من النكاح أو يرزقه الله بامرأة ترضى بالقليل من الصداق والهدايا واليسير من أثاث البيت؛ فإن أكثر الزيجات بركة أيسرها مؤنة كما ورد فى الأثر الصحيح.

وقد روى عن النبى ﷺ قوله «ثلاثة حق على الله عز وجل عونهم فذكر منهم الناكح الذى يريد العفاف».

وولى المرأة الذى يخطب ابنته من لا يقدر على كل تكاليف زواجها لو أنه علم صلاحه وعرف استقامته فالأولى به أن يعول على هذا الصلاح ولا يكترث بفقره، ويقبل زواج ابنته منه استعفافاً له ولابنته، واعتماداً على وعد الله لهم بالغنى كما توحى بذلك الآية الكريمة؛ فإن كلاً من الزوج والولى والبنت حينئذ طالبون للعفة بهذا الزواج غير مبالين بالعوائق المادية، والمظاهر التى لا يقصد منها إلا المباهاة والمفاخرة.

ولعل النبى ﷺ قصد إلى تحقيق كل ذلك فيما روى عنه من قوله لجميع المسلمين فى كل زمان ومكان «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير».

ولا يخفى على أحد أن التعنت والمبالغة فى المهور وفى كل تكاليف الزواج التى أصبحت تستعصى على السواد الأعظم من شباب المسلمين فى شتى البلاد الإسلامية، قد شكلت بؤراً خطيرة للفساد والفتن، وانتشار جرائم الغصب والفاحشة؛ لأن المسلمين

أصموا آذانهم عن سماع القرآن وأغلقوا عقولهم عن فهم مايسمعون منه وعن تدبره، فوقعوا في المعاصي ومارسوا من الانحراف كل ألوانه وأنواعه فاضطربت الحياة الإسلامية وكادت تصطبغ بألوان المجتمعات اللادينية.

**أسباب تحصيل العفة:**

وإذا كانت العفة مطلقاً من الفضائل التي رغب فيها الإسلام، وأغرى بها كل مسلم فإن القرآن والسنة قد ركزا على نوعين من العفة يجب على المسلم التخلق بهما والاجتهاد في تحصيل أسبابهما وهذان النوعان هما:

العفة عن الزنا ومقدماته وكل مايتعلق به، والعفة عن المسألة، وقد ألزم الإسلام المسلم بأحكام وتشريعات تفضي به إلى العفة إن التزم بها واستجاب لتعاليم الإسلام، وحينئذ تصبح العفة بنوعيها خلقاً راسخاً في نفس المؤمن.

١) فأما العفة عن المحارمات التي تتعلق بالنساء فقد كلف الله المؤمنين – تحصيلاً لأسبابها – بالأحكام الآتية:

(أ) غض البصر عما يحرم من النساء أو من الرجال، فالأمر به موجه إلى كل من الرجال والنساء معاً فلا ينبغي لكل من الرجل والمرأة أن ينظر إلا إلى مايحل النظر إليه من كل منهما حين تدعو الحاجة إلى ذلك.

ويعنى ذلك أن لايحصل النظر إلى مايجوز النظر إليه بداع أوبغير داع أو بنوع من المبالغة درءاً لما يترتب على ذلك من المفاسد.

ومن المعلوم جواز نظر الرجل إلى وجه المرأة وكفيها فى حدود الحاجة أو عند وجود الدواعى لذلك على نحو ماوضحنا.

وأما نظر الرجل إلى ماعدا ذلك من المرأة فحرام بناءاً على أمر الله تعالى بغض البصر المستلزم لتحريم النظر إلى غير ماأحل الله.

ويعفى عن نظرة الفجاءة إذ ليس للمرء اختيار فيها، وعليه أن يكف عن استمرار النظر لما روى عن النبى ﷺ من قوله «لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة».

ومن الحكم الواضحات فى الأمر بغض البصر عن كل ماحرم الله مما يتعلق بالنساء سد باب الفساد والشر حيث قيل: إن النظر بريد الزنا.

وفى ذلك شعر طيب، وإن من الشعر لحكمة فقد قيل فى ذلك.

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر

والمرء مادام ذاعين يقلبها ... فى أعين العين موقوف على الخطر

كم نظرة فعلت فى قلب فاعلها ... فعل السهام بلا قوس ولا وتر

يسر ناظره ماضر خاطره ... لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

وفى السنة الصحيحة تسمية النظر المحرم زناً كالاستماع المحرم، والكلام المحرم حيث يتعلق كل منهما بالأمور المثيرة للغرائز، والمهيجة للشهوة، واطلاق النبى ﷺ على هذه الأفعال أنها زناً اطلاق مجازى على اعتبار أنها من أسباب الزنا ومفضية إليه وليس من باب الحقيقة فإنها لا توجب حد الزنا مثلاً وقد روى عن النبى ﷺ من حديث أبى هريرة المتفق عليه واللفظ لمسلم أنه قال «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة: العنيان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام، واليدان زناهما البطش والرجلان زناهما الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه».

وقد أشرنا من قبل أنه يحرم على المرأة النظر إلى مالا يحل النظر إليه من الرجل شأنها فى ذلك شأن الرجل منها على نحو ماتقدم مصداق ذلك ماصح عن النبى ﷺ من حديث أبى سعيد ﷺ أن النبى ﷺ قال: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضى الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد، ولا تفضى المرأة إلى المرأة فى الثوب الواحد» رواه مسلم.

(ب) السبب الثانى من الأسباب المطلوبة والوسيلة الثانية من الوسائل المأمور بها لتتحقق العفة خلقاً فاضلاً للمومن الكامل:

## حفظ الفروج:

ومن حكمة الشارع الحكيم أن أمر المومنين بحفظ فروجهم عن كل مالا يحل استعمالها فيه كجريمة الزنا .

وطلب الشارع الحكيم من المومنين لهذا الأمر إنما هو سد لمنافذ الفتنة وقطع للطريق على الشهوة المتحفزة، والرغبات الجنسية المحمومة، وكبح لجماح الغرائز الجنسية التى تنتظر فرصة الإثارة والتهييج لتلتهم فى طريقها كل ما تتطلع إليه النفس الشريرة والشيطان من زاد خبيث، فلا تعود إلا بالنقمة والبوار على جوانب الطهر والسمو فى الإنسان، فيصبح من ثم عنصراً من عناصر الهدم، ونموذجاً من نماذج الرذيلة والمنكر فى المجتمع.

والفروج التى طلب الشارع المحافظة عليها من كل مؤمن لا تحل إلا بكلمة الله.

والطريق الأمثل الذى رسمه الإسلام لهذا الأمر هو طريق الضوابط والتوجيهات لهذه الطاقة الشهوانية فى الإنسان المؤمن، وكان ذلك فيما شرعه الله للمؤمنين من نظام الزواج الذى أحاطه سبحانه بإطار مقدس من الأسس والأركان والشروط حتى يضمن للجماعة الإسلامية سكينتها واستقرارها؛ فإن استقرار الجماعة وسلامتها بسلامة ماتقوم وتبنى عليه من الجماعات الصغيرة التى تعرف بالأسر وقد حصنت بهذا النظام المحكم وهو الزواج الذى

عصم كل من نعم تحت مظلته من الوقوع في شرك الشهوات الجنسية، والأهواء الجسدية.

ويشهد بإحكام الأمر الإلهي في هذا الصدد واقع المجتمعات التي أعطت لغرائز أبنائها الحرية، وأطلقت طاقاتهم الشهوانية من عقلها حتى لا يقع الإنسان في هذه المجتمعات في أخطار الكبت الجنسي، وماينتج عنه من أمراض نفسية وعصبية على حذر زعمهم.

ولكن واقع هذه المجتمعات كذب هذه الدعوى حيث أصبح أبناؤها من الشباب والشابات نهباً للإباحية الجنسية التي لا ضابط لها، فإن الغرائز الجنسية إذا استثيرت تفتح شرهها وانطلق سعارها بحيث لا تقف عند حد، وافترست الشباب سائر الأمراض النفسية والعقلية، وفقدوا الانتماء إلى أسرٍ كريمة تكون لهم بمثابة حصن الأمان، وانعكس مايعانونه من القلق على العلاقات الاجتماعية بينهم، فاتسمت بالمادية وتميزت بالنفعية، ووقعوا في مخالب طائفة من الأمراض العضوية كأمراض الإيدز، والزهري، والسيلان وغير ذلك من الأمراض الاجتماعية والخلقية.

وكل ذلك كان بسبب بعدهم عن المقاييس الخلقية والدينية، وعدم تحصنهم بنظام الزواج وغيره من الضوابط التي قدمها

الدين وبخاصة الإسلام لغرائز الإنسان وطاقاته الحسية من جنسية وغير جنسية.

ومن هنا يدرك المؤمن سمو دينه وحكمة ربه حيث أمره بحفظ الفرج عن كل ماحرم الله عليه.

وفى الأمر بحفظ الفروج ومن قبله غض البصر موجهاً إلى كل مؤمن ومؤمنة جاءت الآيتان الكريمتان من سورة النور تتضمنان الدعوة إلى هذين الأمرين، وإلى سد الطريق على جميع المثيرات والمهيجات للشهوة حتى يفسح الطريق لتحقق خلق العفة وهاهو قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾[١٩].

(جـ) ويواصل الشارع الحكيم منظومة الأسباب التى تقتضى خلق العفة أو تفضى إليه امتداداً لمنهجه التربوى الكريم

(١٩) سورة النور الآيتان (٣٠ - ٣١).

فيضيف إلى ماسبق تأكيد الحرمة التى تجب لبيوت المسلمين، وتطلب لصيانتها.

فقد خلقت البيوت مأوى للراحة وموطناً للاستقرار، وحصناً يأمن المسلمون فيه أن ينال من أحوالهم وأوضاعهم التى لا يحبون أن يراهم أحد عليها من غير محارمهم، بل ومن بعض محارمهم أحياناً.

ومن هنا نهى الله كل مسلم أن يدخل بيتاً من بيوت المسلمين قبل أن يستأذن فى الدخول ويسلم على أهله، ويؤذن له بذلك وذلك صيانة لحرمة البيوت، وحرمة أهلها، لما للبيوت من الخصوصيات التى أشرنا إليها، وصيانة من جهة أخرى للمسلم من أن يقع فى إثم النظر إلى ماحرمه الله عليه، فقد جرت عادة الناس رجالاً ونساءاً، وبخاصة إذا كانوا أعضاءاً فى أسرة واحدة أن يتحرروا من بعض ثيابهم أو يتخففوا – على الأقل – منها بحيث يبدو من بدن المرأة مثلاً مالا يجوز النظر إليه لغير محارمها.

لكل ذلك أوجب الله على المسلمين الاستئذان فى دخول البيوت وجعل له آداباً، كأن يطلب من المسلم مثلاً أن يستأذن ثلاثاً على سبيل الاستحباب، فإن أذن له بالدخول دخل، وإن لم يؤذن له رجع من حيث أتى دون غضاضة أو كراهية لذلك بل إن المسلم ليغتبط برجوعه عند عدم الإذن له بالدخول لأنه طاعة لله واستجابة لأمره.

وفي هذا المقام يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾(٢٠).

ويروى فى سبب نزول هاتين الآيتين: «أن امرأة من الأنصار قالت: يارسول الله، إني أكون فى بيتى على حال لا أحب أن يرانى عليها أحد، لا والد ولا ولد فيأتى الأب فيدخل عليّ، وإنه لا يزال يدخل على رجل من أهلى وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فنزلت الآية. وهكذا يؤكد القرآن حكم الاستئذان فى دخول البيوت المأهولة أو التى يعهد بين الناس سكناها أو يعرف الناس ساكنيها وأصحابها، فالمسلم ينهى عن دخولها إلا بعد الاستئذان من قبله والإذن من جهة سكانها، وإلا فليس له أن يدخلها حتى لولم يجد فيها أحداً من أصحابها يأذن له بالدخول.

فأما البيوت غير المسكونة التى لا تختص بسكان معينين معهودين، كالفنادق والمحلات العامة، فلا بأس بدخولها دون استئذان أو إذن إذا كان للمسلم حاجة فيها تقتضى هذا الدخول وذلك إنما كان لأمن الحرج فى مثل هذه البيوت المطروقة، والتى اعتادت أن تستقبل قصادها ونازليها، ورتبت فيها الأوضاع لذلك.

(٢٠) سورة النور الآيتان (٢٧ - ٢٨).

وهذا هو مضمون السؤال الذى وجهه الصديق ﷺ إلى النبى ﷺ إذ قال: يارسول الله، أفرأيت الخانات والمساكن فى طرق الشام ليس فيها ساكن فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾(٢١).

هذا ومن آداب الاستئذان التى صرحت بها السنة المطهرة أن الاستئذان فى دخول البيوت المأهولة ينبغى أن يكون ثلاثاً، ولعل الحكمة فى ذلك أن الغالب فى الكلام إذا كرر ثلاثاً سمع وفهم، ولذلك كان النبى ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى يفهم عنه، وإذا سلم على قوم سلم عليهم ثلاثاً.

وحينئذ فإذا لم يجب الشخص بعد الثالثة فالراجح أن صاحب البيت لا يريد إجابته، وقد يكون ذلك لمانع أو لمصلحة ومن هنا كان على المستأذن أن يرجع ولايزيد على الثلاث حتى لا يوقع صاحب البيت فى حرج أو يشوش عليه مايشتغل به من أمور نافعة.

ولا يحول دون مشروعية الاستئذان فى أيامنا هذه اتخاذ الناس الأبواب الغليظة، ولا يمنع منه أن الناس يعتادون الآن طرق هذه الأبواب ونحو ذلك من دق الأجراس، فعلى المسلم أن يجمع بين الأمرين، حتى لا يعطل الحكم ولا تموت السنن الحسنة، ومع هذه الأبواب ينبغى كذلك أن لا يستقبل الشخص الباب بوجهه حين يطرقه مستأذناً فى الدخول، بل ينبغى عليه أن يقف عن يمين الباب أو عن شماله حتى لا يسدد نظره إلى داخل البيت حين تفتح له الأبواب، أو يفجأ الفاتح، وربما أوقعه فى حرج.

(٢١) سورة النور الاية (٢٨).

كما ينبغي أن يكون طرق الأبواب طرقاً خفيفاً اتقاءاً لازعاج من بالداخل، فإذا ماطلب منه التعريف بنفسه بنحو كلمة «من على الباب» فليس له أن يقول أنا، وإنما ينبغي أن يقول فلان معرفاً بنفسه مستأذناً في الدخول بأن يقول «أتأذن لى فى الدخول» ونحو ذلك من العبارات الدالة وذلك حتى يترك لصاحب البيت الخيار فى أن يأذن أو لا يأذن.

هكذا تصان حرمة البيوت، وهكذا تكون عظمة الآداب الإسلامية، وهكذا يقطع الاسلام على الشيطان سبيله إلى نفس المسلم فى علاقته ببيوت إخوانه من المسلمين وحرماتها.

وهكذا يتحرى الإسلام كل فرصة لتحقق عفة المسلم وطهارته النفسية.

(د) ويترقى التشريع الإسلامى فيبلغ مداه فى الروعة والسمو فبعد تعميمه الأمر بالاستئذان فى دخول البيوت على جميع المسلمين؛ فإنه يخصص الأمر بالأستئذان بالعبيد والإماء مما كان تحتويه بيوت المسلمين فى العصور الخوالى، وكذلك بالصبيان الذين لم يبلغوا الحلم فيطلب من كل راع لأسرة أو رب لبيت أن يؤدبوا هذين الصنفين من رعيتهم وأفراد أسرتهم ويلزموهم أن لايدخلوا عليهم مضاجعهم وغرف نومهم فى الأوقات التى يمكن أن يكون المرء فيها غالباً على حال يقبح رؤيته عليها ولا يجمل بمثل هؤلاء من المملوكين أو الصبيان أن يروهم عليها.

وهذه الأوقات كما صرح القرآن: ثلاثة هى مظنة الكشف والتجرد من ثياب اليقظة أو ملابس النهار وهى الوقت قبل صلاة الفجر حين يهم المرء بالاستيقاظ.

وفى الظهيرة عندما يأوى المرء إلى مضجعه إلى الراحة والابراد من حرّ القيلولة.

وبعد صلاة العشاء حيث يدلف الإنسان إلى منامه أو إلى مرقده ليستريح بالنوم من عناء النهار.

ولحساسية هذه الأوقات سماها القرآن ثلاث عورات وإذ كانت كذلك فإنه لا يليق بالمسلم ولا بخدمه وأطفاله أن يتورطوا فى مواجهتها.

والقرآن يسجل ذلك فى قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) ﴾[٢٢].

(هـ) ومن أهم الأسباب المفضية إلى العفة وأبلغها أثراً عناية النبى ﷺ بأمرالشباب الذين هم فى سن الفتوة والقوة والحيوية فنصح الواجدين منهم والقادرين على تكاليف الزواج ومؤنته أن يتزوجوا ولا يتقاعسوا عن الزواج، ثم يوجه ﷺ المعدمين منهم

---

(٢٢) سورة النور الآية (٥٨).

وغير القادرين على تكاليف الزواج - وبخاصة حين يستفحل أمرها ويتفاقم خطرها كمافى أيامنا هذه - أن يلجئوا إلى الصيام، فإن الصيام يعود المرء على الصبر والجلد والتحمل لمشقات الحياة لما يقوم المرء فيه بالحرمان من مباحات الطعام والشراب وطيباته مهما أشتد به الجوع واشتط به الظمأ، فيكون احجامه عن محرم الطعام والشراب وشهوات النفس من باب أولى.

ومن المعلوم فى العادة أن الإنسان إذا أجاع بطنه خفت حدة شهواته، لأن الطعام والشراب هو مصدر طاقته وحيويته، فإذا لم يستطع المرء أن يمارس الصيام بسبب أو لآخر فعليه أن يتشبه بالصائمين، وذلك بالتقليل من تناول الطعام وعدم الإسراف فى الإقبال على لذيذه وطيبه، وليحتف منه بما يحتاج إليه لمواصلة الحياة، أو بما يعينه على القيام بما ينبغى أن يقوم به من عمل، وليشغل نفسه - معظم وقته - بالعمل المثمر والعلم النافع دون أن يقصر فى حق الله بما أمره به من العبادة، وبخاصة فإن أهل العلم والاختصاص يرون أن التقليل من الطعام معين على توفر الصحة البدنية والنفسية، ومن مأثورات طبيب العرب الحارث بن كلدة مايوافق به هذه الحقيقة إذ قال: المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء.

وقبل ذلك وبعده يقول طبيب الأرواح والأبدان نبينا ﷺ ليعلم الأقدمين والمحدثين «بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه».

وفي القرآن قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(٢٣).

وهكذا يظهر كثير من الحكم من وراء توجيه النبى ﷺ للشباب المعدمين المتحفزين للزواج إلى الصيام وإلا فالتقليل من الطعام حتى تحقق عفتهم وتصان أعراضهم ولا يقعوا فريسة لشهواتهم وأهوائهم فيوشك أن يدفعهم الشيطان إلى السقوط فى وحل الحرام وعفن الآثام.

وهذا هو نداء النبى ﷺ وتوجيهه للشباب فى قوله «يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض بالبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

**٢) العفة عن المسألة:**

والمستقصى للنصوص الدينية من قرآن وسنة يجد أنها ترسخ فى نفس المسلم النوع الثانى من العفة وهى العفة عن السؤال؛ لأن الإسلام يريد من المسلم أن يكو قوى الشخصية عزيز النفس، ممتلئاً بالثقة فى ربه وفى إيمانه وبنبيه وبدينه.

والعفة هنا مسألة نسبية، والدين يطلبها من المؤمنين على جميع مستوياتها، وهى وإن كانت في الأصل مطلوبة من الفقراء الذين حرمتهم ظروفهم من تحصيل أسباب معيشتهم بكسب أيديهم بسبب عجز أو آفة ونحوه. أقول: إن كان التعفف مطلوباً لمثل هؤلاء صيانة لماء الوجه واعتداداً بالشخصية وثقة فى ربهم قبل ذلك وبعده.

---

(٢٣) سورة الأعراف فى الآية (٣١).

فإنها تطلب كذلك حتى من أولئك القادرين الذين ساعدتهم ظروفهم الصحية والعقلية، ومكنهم فضل الله وتوفيقه من الحصول على النصيب الوافر من مقومات الحياة من مالٍ وتعلم ومنصب وما إلى ذلك.

ومن طبائع الناس الذين تتحكم فيهم نفوسهم ألاّ يقنعوا بما أصابوه في الحياة من حظ ومستوى، وإنما يتطلعون دائماً إلى مافوق حظوظهم، ويطمعون فيما ناله غيرهم من حظوظ الحياة مما وقفت عنه مواهبهم وقدراتهم عن نيله والظفر به، وينسون أن الله هو الذى قسم الأرزاق والحظوظ بين الناس جميعاً لحكم يعلمها سبحانه، ولا يعلمها عباده، وأن الخير كل الخير فى ماقسمه الله، وماالختاره لعباده من ذلك، وأن لذلك دخلاً كبيراً فى مسيرة الحياة، وكمال النظام الذى أراده الله لهذا الكون، والقرآن يشير إلى ذلك فى قوله سبحانه ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾(٢٤).

والإنسان إذ يغفل عن هذه القيم يعيش غارقاً فى همومه يفترسه القلق، وتقض الأطماع مطجعه، وبخاصة فيما يظفر به الغير، ولا نجاة له إلا فى الرجوع إلى تعاليم دينه، وتوجيهات ربه فيرضى بما قسم الله له، ويتعفف عمالم يكن من رزقه ونصيبه من أعراض الحياة الدنيا.

---

(٢٤) سورة الزخرف الآية (٣٢).

وهذا هو المخرج من هذه الأزمة، وأول طريق السعادة فى الدنيا والآخرة، وهذا الضرب من التعفف مطلوب من مثل هذا الصنف من الناس؛ لأنه إن لم يتعفف فضلاً عما يعتريه من القلق والهموم والأحزان قد يعرض نفسه إلى بذلها رخيصة بل قد يهدر آدميته فى ألوان من النفاق والوصولية لأصحاب القرار من روء سائه رغبة أو طمعاً فيما ليس من حقه وقد يكون ذلك قفزاً على حقوق الآخرين.

وهذا عمل لا يرضى عنه الله، ولا يقبله الدين، بل إن أمثال هذه الشخصية لا تحظى بقدر من الاحترام الحقيقى لا من قبل روءسائه ولا من قبل زملائه وإخوانه.

ولا شك أن الذى يرضى الله عن سلوكه فى هذا المقام ويحظى باحترام إخوانه بعد روء سائه هو الشخص العفيف القانع برزقه الراضى بما قسم الله له، المتعفف عما فى أيدى الآخرين.

والقرآن يضرب المثل للفقير المتعفف ومكانته عند الله وعند الناس بفقراء المهاجرين الذين قدموا على رسول الله ﷺ ولامال لهم ولا أهل، وقد أقعدتهم علتهم عن الكسب بالجهاد مع النبى ﷺ والمسلمين، كما أقعدهم خوف العدو الكافر المتربص للإسلام والمسلمين فى بلاد الكفر يومئذ عن الضرب فى الأرض للتجارة، وتحصيل أسباب المعيشة، فبنى لهم الرسول ﷺ صفة فى مسجده لتكون لهم مجلساً وراحة فى الوقت الذى يفرغون فيه من العبادة.

وقد بلغ بهم تعففهم عن المسألة، وتوكلهم على الله وثقتهم فى رزقه أن من لا يعرف حالهم يظنهم أغنياء من التعفف، وإن كانت لفاقتهم علامة يفطن إليها المتبصر والمتأمل.

وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) ﴾(٢٥).

وقد أشارت الآية الكريمة فوق ماتقدم إلى:

أنه ينبغى على الواجدين القادرين أن يلتمسوا الفقير المتعفف عن المسألة تعففاً نابعاً من تكوينهم فى غير تعالٍ ولا تكبر بكل وسيلة من وسائل الالتماس والبحث؛ لأن مظاهرهم التى يحافظون عليها قد تخدع أصحاب العطاء فيتجاوزونهم، وطرق البحث ميسورة لمن وفقه الله. كما يوجه القرآن الأغنياء من الذين يلون أمر طائفة من اليتامى الذين لم يبلغوا سن الرشد بحيث يستطعون التصرف فى أمورهم وأموالهم أن يتعففوا عن أخذ شيئ من أموالهم التى ينبغى أن يحفظوها عليهم وينموها لهم، وأن يحمدوا الله على أن بسط لهم الرزق وأغناهم من فضله.

أما إذا كان هؤلاء الذين يلون أمر اليتامى من الفقراء فلا يأخذون من أموالهم إلا بقدر الضرورة أو الحاجة التى تشبه الضرورة. وهذا أيضاً ضرب من التعفف.

---

(٢٥) سورة البقرة الآية (٢٧٣).

وفى هذا قال الله سبحانه ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[٢٦] الآية ولعل مما يقوى خلق العفة عن المسألة ويثبته في نفوس المسلمين ويرسخه حتى يصبح خلقاً وطبيعة لكل مسلم أن حذر النبى ﷺ الواجدين والقادرين على الكسب من المسألة بقدر مارغب فى التعفف عنها فقال النبى ﷺ «لاتزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس فى وجهه مزعة لحم» وهو حديث متفق عليه.

وأحاديث هذا الباب كثيرة كلها تحذر من المسألة وبخاصة الذين لا يحتاجون إليها كما مرّ. وأحاديث الترغيب فى التعفف عنها لا تقل كثرة أو تصريحاً بمنزلة المتعفف وكرامته.

ومن الأمثلة على ذلك قول النبى ﷺ «اليد العليا[٢٧] خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول وخير الصدقة ماكان عن ظهر غنى ومن يستعف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله» وهو متفق عليه أيضاً.

وعلى من يريد الاستزادة من توجيهات النبى ﷺ إلى التحذير من السؤال أو الترغيب فى العفة عنه أن يرجع إلى هذا الباب من كتب السنة. والله أعلم.

---

(٢٦) سورة النساء فى الاية (٦).

(٢٧) اليد العليا: هى المعطية واليد السفلى: هى الآخذة.

# فضيلة الحلم

الحلم من أمهات الفضائل فى منظومة الأخلاق الإسلامية يتبدى ذلك أول ما يتبدى للمتأمل فى معناه اللغوى وهو الصفح والأناة فى مقابلة الغضب والعنف والعدوان... إلى آخر هذه المعانى. التى تؤثر سلباً على شخصية المسلم، وتهبط بها إلى مستوى العناصر الاجتماعية المنفرة وتنزل به عن درجة العناصر المألوفة والسوية.

ودرجة الحلم ومنزلته فوق درجة ومنزلة الصبر وكظم الغيظ فكلاهما يحتاج إلى قدر كبير من المجاهدة والمكابدة، وكلاهما يفضيان بصاحبهما إلى خلق الحلم.

وهو أيضاً فوق درجة التحلم التى هى تكلف الحلم قبل أن يصير خلقاً ثابتاً وملكة راسخة لنفس المسلم.

وهذا الخلق يحله الإسلام محل رذيلتين وخستين هما الغضب والخنوع أو الاستكانة، وهو بصدد تهذيب النفس وتصفيتها من الرذائل المهلكة، وتحليتها بما يقابلها من الفضائل الإنسانية السامية.

وهكذا تشكل فضيلة الحلم مقوماً هاماً من مقومات بناء الشخصية المسلمة الكريمة بما تحققه لها من التوازن النفسى والانسجام الروحى بين المسلم وبين أمته بل بينه وبين الطبيعة من حوله.

ولاغرو فإن نفس الشخص الحليم تمتلئ أماناً وسكينة وتحظى بنصيب كبير من الهدوء والأناة، ويكاد يكون هذا المعنى ما أشار إليه قول النبى ﷺ -عن كاظم الغيظ القادر على إنفاذه- «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً».

ولا ريب أن الشخص الذى أشار إليه الحديث هو الإنسان الحليم والإنسان المتخلق بخلق الحلم.

ومن هذا المنطلق تكون شخصية المؤمن الحليم شخصية محورية فى أسرته وبين أقرانه وفى مجتمعه الأكبر، ذلك لكونها تلك الشخصية المشعة المؤثرة العاكسة على من حولها مما تتمتع به من نفس آمنة نقية وادعة مسالمة، فالحليم هو الشخص الذى يتجاوز الإساءة ولايواجه السيئة بالسيئة مع قدرته الكاملة على تلك المواجهة وإنما يدفعه حلمه وصفحه وأناته أن يقابل السيئة بالحسنة وأن يكافئ الإساءة بالإحسان.

فما أروع ما يجنى صاحب هذا السلوك من ثمرة وما أطيب ما يحصل من نتائج، فماذا بعد أن ينقلب العدو إلى صديق حميم، وماذا بعد أن يجد رد فعل سلوكه هذا اعتذاراً واستحياءاً بعد البذاءة والسماجة، ومحبة ووئاماً بعد العداوة والحماقة وهذا المعنى يوشك أن تشير إليه الآية الكريمة فى قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [1].

(١) سورة فصلت : الآية (٣٤).

ومن افـرازات سلوك المـؤمن الحليم على هذا النحـو أن يتـمـثله أو يحاول ذلك بعض أقرانه وأخوانه في محيط مجتمعه ثم أبناؤه في محيط أسرته، وذلك عن طريق القدوة والمثل. والتأسى والاقتداء بالأمثلة الطيبة في دائرة السلوك والعمل أخطر أثراً من التوجيه بالأمر والنهى.

ولهـذا وغـيـره كـانت عناية الإسـلام بمكانة الحلم بين غـيـره من الفضائل الإسلامية، إذ جعله من صفات الأنبياء والمرسلين والأولياء، وفى مقدمتهم نبي الإسلام محمد ﷺ.

وقبل ذلك وبعده وصف الله به نفسه في قرآنه، وجعله من صفات جماله الذاتى.

ودعوة الإسلام أبناءه إلى التخلق بفضيلة الحلم ليكون المؤمن الحليم الصفوح المتسامح الرحيم المسالم -في غير ضعف ولا استكانة- نموذجاً متفرداً بين أقرانه من بني الإنسان قاطبة.

فالمؤمن الحليم مع قدرته التامة علي القصاص والرد ممن أساء إليه يحلم ويصفح، ولايبتغى بذلك إلا وجه الله.

وهذا السلوك هو الذى تجسده الآية القرآنية الكريمة فى قوله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾(١).

---

(١) سورة الشوري : الآية (٤٠).

فأين الشبيه والمثيل فى مجتمع من المجتمعات غير الإسلامية المتكافئ مع هذا النموذج للمؤمن المتخلق بخلق الحلم على هذا النحو، بحيث لا تكون ردود أفعاله متكافئة مع ما يواجه من أفعال مهيجة ومثيرة، ومن ذا الذى لا يواجه الغضب بالغضب ولا يجابه العنف بالعنف، ولا يكافئ العدوان بالثأر والانتقام.

والجواب المنصف عن ذلك التساؤل إنه نموذج الحليم المتجسد فى شخصية المسلم الذى يستطيع أن يكظم غيظه فى مواجهة المثيرات والمهيجات ويمدحه الله فى قرآنه فى قوله تعالى عن صفات المتقين: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١). فهل يعد ذلك وجه صحيح فيما يطعن به على الإسلام والمسلمين فى العالم الغربى من حولنا وفى أيامنا هذه من مطاعن العنف والإرهاب والعدوان والقتل وسفك الدماء.

إن كل من يوجه للإسلام مثل هذه التهم الغليظة إنما يصدر عن قلب يموج بالحقد والبغضاء تجاه الإسلام وأهله.

والمثل الأعلى للمسلمين جميعاً فى تجسيد خلق الحلم قولا وعملا، وطبعا وسلوكا هو شخصية نبي الإسلام سيدنا محمد ﷺ. وإننا لنلاحظ ونحن نتتبع صوراً من حلم النبى ﷺ أن هذا الخلق الكريم إنما يستمد زخمه وشذاه من منابع غاية فى الصفاء والطهر والنقاء تتمثل فى فضائل

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٣٤).

الرحمة والعفو والرفق وكظم الغيظ... إلى آخر هذه الفضائل. فيصبح خلق الحلم بهذا الحجم نموذجاً فريداً لانظير له بين قيم المجتمعات الإنسانية قاطبة.

وهذه هى بعض صور الحلم التى تمثلها النبى ﷺ وأعطاها لنا دروسا نافعة ومؤثرة.

**من هذه الصور :**

١ - حلم النبى ﷺ -وهو نبى الأمة وقائدها وحاكمها-فى مواجهة ذلك الأعرابى الغليظ الطبع حين جذبه من ردائه ذى الحاشية الخشنة حتى أثرت هذه الجذبة فى صفحة عنقه ألماً ووجعاً واحمراراً، وليس ذلك فحسب وإنما سرت غلظة الأعرابى فى مخاطبة النبىﷺ أن يعطيه النبى مما عنده من مال الغنائم أو الفئ أو الزكاة أو غير ذلك، ومما قال الأعرابى للنبىﷺ أعطنى فإنك لاتحمل من مالك ولا من مال أبيك، فماذا كان رد فعل النبىﷺ. أنهﷺ سكت ثم قال للأعرابى: «المال مال الله وأنا عبده» ثم التفت النبىﷺ للأعرابى ضاحكاً بشوش الوجه ثم أمر له بالعطاء، وقابل إساءته بغاية الإحسان حيث أمر له بأن يحمل له على بعير شعيراً وعلى الآخر تمراً وفى هذا مزيد من حسن خلقهﷺ، فإنه عفا عن جناية الأعرابى بجذب النبىﷺ وإيلامه بحاشية ذلك البرد حتى أثر فى عاتقه، وزادﷺ على العفو بالبشر كما قال القائل:

بشاشة وجه المرء خير من القرى

فكيف بمن يعطى القرى وهو يضحك

٢ - وهذه صورة أخرى نرى فيها حلم النبىﷺ عاملاً هاماً فى تآلف النبىﷺ قلوب الاعراب على ما فيها من جفوة وغلظة وجذبهم إلى نور الإسلام ومحبة نبيهمﷺ.

التقطت هذه الصورة حين جاء النبىﷺ أعرابى يستعطيه فأعطاه ولكن النبىﷺ بفراسته المنبثقة عن نور النبوة يلحظ أن الرجل لم يقنع، فيسأله النبىﷺ: هل أحسنت إليك فيجيبه الأعرابى بفظاظة وشدة قائلاً: لا أحسنت ولا أجملت. فقام إليه من حضر الواقعة من أصحاب النبىﷺ غاضبين يريدون تأديبه. ولكن حلم النبىﷺ يأبى عليه إلا أن يمنعهم عن ذلك وأشار إليهم أن كفوا.

ثم لم يكتف النبىﷺ بذلك وإنما قام ودخل منزله ثم أرسل إلى الأعرابى وأعطاه شيئاً آخر فوق الذى أعطاه، وكرر عليه السؤال قائلاً للأعرابى: هل أحسنت إليك فقال الأعرابى: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

---

(١) هذه الواقعة تضمنها الحديث الذي أخرجه الشيخان من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول اللهﷺ يرد بخراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلي صفحة النبيﷺ، وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مرْ لي من مالك الذي عندك فالتفت إليه فضحكﷺ ثم أمر له بعطاء.

أخرجه الإمام البخاري في كتاب اللباس باب ١٨ في الفتح ١٠/

والإمام مسلم في كتاب الزكاة باب إعطاء المؤلفة.

وفي دليل الفالحين (١٠٤/٣).

وهنا أراد النبى ﷺ أن يعلم أصحابه والمسلمين عامة هذا الدرس، وأن يكشف لهم عن حقيقة هامة وهى كيف يحقق الإنسان بالحلم من تأليف القلوب وإلانة الطباع ما لا يحققه من ذلك بالعنف والقوة فقال ﷺ للأعرابى: «إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك. قال: نعم.

فلما كان الغد جاء فقال النبى ﷺ: إن هذا الإعرابى قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضى. أكذلك.

فقال الأعرابى: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. ثم أراد معلم المسلمين الحكمة محمد ﷺ أن يؤكد هذا المغزى من تلك الواقعة فضرب مثلا حسياً وعملياً فى أثر خلق الحلم فى تآلف الناس وتوادهم فقال معقباً: «إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحب الناقة: خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها وأعلم، فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردها هوناً، هوناً حتى جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها، واستوى عليها، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال، فقتلتموه دخل النار[1].

---

(١) إحياء علوم الدين ( / ).

٣ - ويرفع النبىﷺ مكانة الحلماء فيخبر عنهم أنهم يدركون درجة القائمين الصائمين[١].

٤ - ومن هنا بلغ خلق الحلم بأصحابه إلي منزلة أهل الفضل الذين يتميزون بهذا اللقب ويكون جواز مرورهم يوم القيامة إلى الجنة حين يجمع الله الخلائق فيما يخبرنا به النبىﷺ -«نادى مناد آين أهل الفضل قال: فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعاً إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون إنا نراكم سراعاً إلى الجنة فمن أنتم فيقولون نحن أهل الفضل فيقولون وما فضلكم فيقولون كنا إذا ظلمنا صبرنا وإذا إسىء إلينا حلمنا فيقال لهم أدخلوا الجنة فنعم أجر العاملين»[٢].

٥ - وهكذا كان دفع النبىﷺ أصحابه إلس التخلق بخلق الحلم بل تحريض الأمة بأسرها علس التشبث بهذا الخلق إذ جعله النبسﷺ مما يشرف الله به البنيان ويرفع به الدرجات حيث قال لأصحابه. «ألا أنبئكم بما يشرف الله به البنيان ويرفع به الدرجات قالوا: نعم يا رسول الله قال: تحلم علس من جهل عليك وتعفو عمن ظلمك وتعطسى من حرمك وتصل من قطعك»[٣].

(١) أخرجه الحافظ المنذري عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول اللهﷺ إن العبد ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم، وعزاه إلي أبي الشيخ وابن حبان. (٢ / ٢٦٣).

(٢) الترغيب والترهيب (٣ / ٢٦٣) وعزاه إلي الأصبهاني.

(٣) الترغيب والترهيب (٣ / ٢٦٤).

٦ - وارتقاء بالحديث عن خلق الحلم إلى أنه خلق يحبه الله ورسوله فهو إذن مدعاة إلى أن يحب الله ورسوله صاحبه ويتجلى ذلك فى حكمة النبى ﷺ وهدايته حين قال لأشج عبد القيس «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»(١).

وسبب قول النبى ﷺ له ذلك ما جاء فى حديث الوفد «أنهم لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبى ﷺ وأقام الأشج عند رحالهم فجمعها وعقل ناقته ولبس أحسن ثيابه، ثم أقبل إلى النبى ﷺ، فقربه النبى ﷺ فأجلسه إلى جانبه ثم قال لهم النبى ﷺ : تبايعونى على أنفسكم وقومكم، فقال القوم: نعم، فقال الأشج: يارسول الله إنك لم تزاول الرجل على شيء أشد عليه من دينه، نبايعك على أنفسنا وترسل من يدعوهم، فمن اتبعنا كان منا ومن أبى قاتلناه قال: صدقت إن فيك خصلتين يحبهما الله».

وفى رواية سأل الأشج النبى ﷺ أكانت هاتان الصفتان فىّ أم جديدتين؟ فقال النبى ﷺ : بل قديم، أى هما قديمتان.

قال الأشج: الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله. وصورالحلم فى شخص النبى ﷺ قولاً وعملاً وسجية قد تستعصى على الإحصاء والاستقصاء فى هذا المقام، وحسبنا أن وجهنا إلى بداية الطريق. ولكننا نرى أنه لايكتمل المقام حتى نذكر نماذج من حلم أكابر الصحابة التابعين الذين هم أكثر الناس وأقربهم تمثلاً بشخصية النبى ﷺ خلقاً وعملاً وقولاً.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم ( / ).

# نماذج من حلم أكابر الصحابة والتابعين

١ - ها هو ذا على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه يقرر موجهاً ومعلماً أن الخير لايكون فيما يحصل الإنسان من المال والولد بقدر ما يكون في تحصيله للحلم والعلم، وينبه رضى الله عنه إلى أثر من أبرز أثار التخلق بخلق الحلم وهو أن يجعل هذا الخلق أكثر الناس أعواناً للحليم على من يجهلون عليه. وفى هذا يقول -رضى الله عنه- «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك وأن لايتباهى الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله تعالي وإذا أسأت استغفرت الله تعالى».

ويقول رضى الله عنه أيضاً «إن أول ما عوض الحليم من خلقه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل».

٢ - وهذا الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمن علينا بشيء من حكمته المنيرة -وهو صاحب الموافقات في التشريع الإسلامى- إذ يؤكد خطر خلق الحلم وأثره على شخصية المسلم فيقرر أنه لا يجدر بالمسلم أن يكتفى بتحصيل العلم دون أن يدعمه بالسكينة والحلم وفى ذلك قال: -رضى الله عنه- «تعلموا العلم وتعلموا السكينة والحلم».

٣ – وقريب من رؤية الخليفة عمر -رضى الله عنه- قول الحسن -رضي الله عنه- «اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم».

٤ – ويري معاوية بن أبى سفيان -رضى الله عنه- أن الرجل لايصبح ذا رأى وكلمة سديدة فى قومه حتى يحظى بنصيب كبير من الحلم والصبر والعلم وهذا ما قاله -رضي الله عنه- لايبلغ العبد مبلغ الرأى حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ولايبلغ ذلك إلا بقوة العلم».

٥ – ويجلى أنس بن مالك -رضى الله عنه- عن شيء من طبيعة خلق الحلم حين يسب المسلم أخوه المسلم فلا يرد عليه سبه بسب آخر كفاءً للسيئة بالسيئة وهذا حقه ولكنه يتجاوز هذا الحق ويتنازل عنه فيحلم على هذا الذى سبه بكلمة طيبة مفعمة بالحلم يذكره فيها بالله فيكسر حدة الغضب عنده ويصبح صديقاً حميماً.

هذا ما فسر به أنس رضى الله عنه- الآية : ﴿ فإذَا الَّذى بيْنكَ وبيْنهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الَّذينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾[١].

قال رضى الله عنه هو الرجل يشتمه أخوه فيقول إن كنت كاذباً فغفر الله لك وإن كنت صادقاً فغفر الله لى».

---

(١) سورة فصلت : الأيتان (٣٤ – ٣٥).

٦ - وتشير هذه الواقعة بين معاوية وأحد السادة والزعماء فى قومه إلى أن خلق الحلم إنما يكون من مقومات السيادة وعوامل الرياسة فى جملة من الفضائل التى تفضى إلى تميز صاحبها عن بنى عشيرته أو قبيلته.

فهذا معاوية -رضى الله عنه- يسأل عرابة بن أوس بم سدت قومك يا عرابة؟

قال يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطى سائلهم وأسعى فى حوائجهم فمن فعل فعلى فهو مثلى ومن جاوزنى فهو أفضل منى ومن قصر عنى فأنا خير منه».

٧ - ويضرب عبد الله بن عباس رضي الله عنه مثلاً فى درس الحلم الذي تعلمه ووعاه عن نبيهﷺ ويجني ثمرة حلمه مباشرة حين سبه رجل فلما فرغ قال يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحى»[1].

وفى هذا القدر على ضآلته كفاته وفي كتب العلم من نماذج خلق العلم عند الصحابة والتابعين مزيد لمن أراد أن يستزيد.

(١) إحياء علوم الدين (٣ / ١٧٤).

# فضيلة التواضع

التواضع -وهو التنزه عن الكبر والتعالى والإعجاب بالنفس وأمثال ذلك من الرذائل- من الفضائل الإسلامية السامية، حرص الإسلام على غرسها فى نفوس أتباعه وتعهدها بالرعاية والإنماء، وبالرغم من كون التواضع فى الأصل خلقاً إنسانياً كريماً، ولهذا جعلها الفلاسفة واسطة العقد فى منظومة الفضائل الخلقية وحيث جاءت وسطاً كسائر الفضائل بين رذيلتين على نحو ما قرر أرسطو فى تعريف الفضيلة.

فقد جاءت فضيلة التواضع وسطاً بين رذيلتى الكبر والمذلة، فإن المسلم المتواضع يخلع عن نفسه نوازع الكبر والعجب والخيلاء، ويضع نفسه إلى المرتبة الدنيا بإرادته واختياره اقراراً منه بأن الذى يستحق نعوت العظمة والكبرياء والتفرد إنما هو الله خالق الكل، والمتفضل على الجميع بنعمه وآلائه، إنما هو تحقيق من المسلم لمقام العبودية للرب وللخالق وتأكيد منه لحقيقة الإنسان الخلقية وما ينبغى أن يكون عليه الإنسان من المساواة والأخوة بينه وبين أفراد جنسه فالكل سواء فى الإنسانية أصلاً وغاية.

وهذا ما تنبض به معاني الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (١).

والتواضع كغيره من الفضائل الخلقية الإسلامية كلها تصب في فضيلة التقوى التي يتميز بها المسلم عند الله وترجح بها كفة ميزانه، ثم إن التواضع مرتبة ترتقي إليها النفس الإنسانية حيث تحظى في معيار الشرع بلقب النفس المطمئنة بعد أن رفضت وتنصلت من سطوة النفس الأمارة بالسوء؛ لأنها تدفع صاحبها إلى أن يسقط في شباك الرذائل وشراك الشهوات الحيوانية وتباعد بينه وبين الخصائص الإنسانية. ومن بين هذه الرذائل بلا أدنى شك رذيلة الكبر والتعاظم على خلق الله تلك الرذيلة التي تحول بين الإنسان وبين حقيقة العبودية. إذ يتأله الإنسان بهذه الصفة أو يحاول أن يقتحم مجالاً ينازع فيه -والعياذ بالله- إلهه وخالقه وصفي الكبرياء والعظمة، فيسقط بذلك في مهاوي الضلال، ويستحق لذلك غضب الله وسخطه.

وهذا مصداق ما جاء في الحديث القدسي عن رب العزة حيث يقول سبحانه «الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار»(٢).

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٣).

(٢) الترغيب والترهيب (٤ / ١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه.

وقريب من هذا المعنى ما جاء عن الصادق المعصوم ﷺ من قوله «ثلاثة لايسأل الله عنهم رجل نازع الله رداءه فإن رداءه الكبر وإزاره العز إلى آخر الحديث...»(١).

ولا ينبغى أن يلتبس على المسلم أمر من الأهمية بمكان وهو أن حقيقة التواضع مع استبطانها للتنزه عن رذيلة الكبر والتنصل عن التعالى والغرور ثم لاحتوائها التطامن إلى خلق الله والتودد إليهم لاتتعارض مع طموح الإنسان المسلم فى حياته العملية إلى أنواع النجاح المختلفة. أو التطلع والسعى الحثيث إلى الظفر بمنصب أو جاه مادام ذلك كله يرجى به وجه الله ورضاه. والخير والنفع لإخوانه فى الله والإنسانية والدين.

ومن أخص معانى التواضع وأدق مفاهيمه أن يقر الإنسان المسلم بالفضل لذوى الفضل ولاينفسهم عليه. بل يعترف لكل ذى حق بحقه عليه ولو كان مساوياً له فى السن والحسب والمستوى المادى.

فاعترافك لزميلك فى طلب العلم مثلاً أو فى العمل الوظيفى أو فى أى مهنة من المهن بالتفوق العلمى أو بالتفوق فى العمل وإعلانك ذلك لزملائك هو من عين التواضع بلا شك. ولا يسوغ أن يعتبر التواضع بهذا المعنى خلقاً سلبياً؛ لأن المتخلق بهذا الخلق إنما

---

(٢) نفس المصدر (٤ / ١٧) من حديث فضالة بن عبيد. وعزاه للطبراني وابن حبان.

يحققه بمحض اختياره وإرادته، وليس معنى حرية الإنسان أن يتطاول ويتعالى دائماً على خلق الله.

ومن هنا يجعل خلق التواضع المسلم نموذجاً متفرداً عن غيره من النماذج فى شتى المذاهب المادية الملحدة كالماركسية التى ترى الإنسان النموذج الحقيقى للإله، وكالوجودية التى تزعم أن الحرية هى رمز الألوهية فى الإنسان.

فالتواضع الإسلامى يضع الإنسان فى حجمه الأخلاقى حقيقة ولكن يجب أن يتحدد هذا النموذج الذى يفرزه خلق التواضع بالمفهوم الذى وضحنا أطرافاً منه فى ضوء علاقته بإخوانه من أبناء دينه الإسلامى.

فلا يجوز ولا ينبغى للمسلم أن يتنازل عن جانب من شخصيته لحساب أعداء دينه من الملاحدة والمارقين وهذا هو ما تعنيه الآية الكريمة فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١). ومعنى كون المؤمنين المشار إليهم فى الآية أذلة على إخوانهم من المؤمنين أنهم متذللون لهم عاطفون عليهم خافضون لهم الجناح وذلك عين التواضع...إلخ.

---

(١) سورة المائدة: الآية (٥٤).

ومعنى كونهم أعزة على الكافرين في نفس الوقت وبنفس الدرجة أنهم أشداء متغلبون عليهم؛ لأن ذلك المقام للجهاد ونشر كلمة الله.

وذلك أمر تعد له العدة وتستنفر له القوى والجيوش ولذلك المعنى نفسه امتدح الله محمداﷺ وأصحابه بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم.

وهذا هو بعينه كذلك ما يفهم من أمر الله لنبيهﷺ بأن يخفض جناحه للمؤمنين ثم أعقبه سبحانه بأمرهﷺ بأن يكون نذيراً للعصاة فضلاً عن المارقين وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (١).

وفي نحو هذا المعنى كذلك قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

وينبغي ونحن في هذا الصدد أن نؤكد هنا أن تواضع المؤمن لربه ولإخوانه من المؤمنين إنما هو سمو لمكانته ورفع لدرجته عند الله وعند الناس فهو شخص يحظى بحب الله وحب الناس معاً.

وما أصدق ما تضمنه قول الشاعر الذي قال في هذا المعنى :

---

(١) سورة الحجر : الآيتان (٨٨ ، ٨٩).

(٢) سورة الشعراء : الآيتان (٢١٥ ، ٢١٦).

تواضع لرب العـــرش علك ترفع

فما خاب عبد للمهيمن يخضع

وأوضح منه قول الشاعر الآخر. وكلاهما يؤكد ما أشرنا إليه من معان حول التواضع:

تواضع تكن كـالنجم لاح لناظر

علي صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه علي

طبـقـات الجـو وهو وضـيع

**صور من تواضع النبيﷺ:**

ولو تفقدنا طائفة من صور التواضع عند النبىﷺ لواجهنا أروع الأمثلة وأشد صور التواضع إشراقاً، تصدر كلها عن شخصيتهﷺ سلوكاً وتعليماً وتوجيهاً لأمته.

ولا عجب فى ذلك فقد وصفه ربه بأنه على خلق عظيم، ووصفته عائشة -رضى الله عنها- اقتباساً من هذا المعنى القرآنى بقولها «كان خلقه القرآن».

١ - فقد وضح صلوات الله وسلامه عليه أن خلق التواضع من الفضائل التى كانت علاجاً لبعض أمراض النفس التى أصابتها بها الجاهلية ورذائلها كأمراض العجب والتفاخر بالأنساب والأحساب والتكبر والتطاول بالأقوال والأفعال، إذ أعلن صلوات الله وسلامه عليه فى خطبة حجة الوداع لأمته أن الله حرم على هذه الأمة عجب الجاهلية وتكبرها.

ويؤكدﷺ هذا المعنى فى قوله: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لايفخر أحد على أحد، ولايبغى أحد على أحد»[١].

٢ - ثم يدعو النبىﷺ المسلمين إلى أن يعضوا بالنواجذ على خلق التواضع ويرغبهم فى أن يتخذوه سلوكاً ونمطاً للحياة، فيبين لهمﷺ أثره على رفع مكانة المسلم وسموها عند الله وترقيه فى سلم هذا السمو كلما تجسد فيه التواضع قدراً، رفعه الله بذلك القدر درجات فى ساحة كرمه، وباحة فضله ورضوانه، وبنفس الدرجة ينفر النبىﷺ من التخلق برذيلة الكبر والتعالى على عباد الله، فيخفض الله منزلة المتكبر، وتهون مكانته حتى يبعده الله عن آفاق رحمته ورضاه فيجعله فى أخس المنازل، وأدنى الدركات.

وفى هذا يأتى قول النبىﷺ: «من تواضع لله رفعه الله»[٢].

---

(١) الترغيب والترهيب (٤ / ١٤) من رواية عياض بن حمار رضى الله عنه وعزاه للإمام مسلم أبى داود وابن ماجه.
(٢) جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم والترمذى ينظر الترغيب (١٤/٤) عن أبى هريرة.

وقوله كذلكﷺ «من تواضع لله درجة يرفعه الله درجة حتى يجعله الله فى أعلى عليين ومن تكبر على الله درجة يضعه الله درجة حتى يجعله فى أسفل سافلين) وفى رواية بزيادة «ولو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس عليها باب ولا كوة يخرج ما غيبه للناس كائناً ما كان».

٣ - وفى باب القدوة والمثل الأعلى يطبق النبىﷺ قوله على فعله فى تجسيد هذا الخلق عملاً وسلوكاً حتى يظهر أثره فى خيرة أصحابه الذين عايشوه وحملوا إلى الأمة أمانة ما سمعوا وما رأوا توجيهاً للمسلمين وتعليماً وتحريكاً لموكب الإسلام ودفعاً له على طريق الخلود متجاوزاً الزمان والمكان باقياً ما بقيت السماوات والأرض». وفى هذا المقام يجسد النبىﷺ هذا الخلق فى محيط أسرته وبيته مع أهله فى أدق الأعمال وأشدها حساسية وأثقلها أثراً على نفوس الرجال والأزواج فى بيوتهم.

فما أعظم تواضعهﷺ وما أبعده فى باب المثالية والتفرد.

فحين تسأل عائشة عما كان يصنعه النبىﷺ فى بيته؟ تقول: كان يكون فى مهنة أهله أى فى خدمتهم»(١).

ولكن ماذا كانت هذه الأعمال التى توضح وتفصل معنى هذه المهنة؟

---

(١) الترغيب والترهيب (٤ / ١٤) عن أبي سعيد الخدري وعزاه إلي ابن ماجة وابن حبان.

فقد قيل: كان ﷺ «يفلي ثوبه. ويحلب شاته ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه ويعلف ناضحه، ويقيم البيت، ويعقل البعير، ويأكل مع الخادم ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق».

يفعل النبي ﷺ كل هذا تواضعاً غير مكره على شيء منه، ولا عاجز عن تركه، وليس في فعله إلزام من الشرع له ﷺ، ولا في تركه تأثم ولا مؤاخذة وإنما هو أحد هذه الأخلاق والفضائل التي تبعث فيما حول المتحقق بها الطمأنينة والأمن والأمان، وتشيع في البيئة الإسلامية عبق الرحمة، وعبير السلام.

ولكن ينبغي ألا يفهم هذا على وجه غير صحيح فيجب أن يقابل هذا من النساء والزوجات في بيوتنا وأسرنا وعي بواجباتها الزوجية التي أعطاها إياها الإسلام، فلا يخل ما يقوم به الرجل من بعض هذه الأعمال تأسياً بالنبي ﷺ بشيء من حقوقه على زوجته وواجباتها نحوه التي منها وفي مقدمتها خدمتها لزوجها ولأولادها.

وتتضمن هذه الخدمة كل ما كان يقوم به النبي ﷺ من الأعمال في بيته تواضعاً وتراحماً مع أهله.

وهو تنازل منه في الأصل عن بعض حقوقه الزوجية؛ لأنه المعلم والقدوة.

وهو تنازل لايسقط الحقوق ولاينقص الواجبات فلتفهم الأمور على وجهها الصحيح.

وخلق التواضع ينبغى أن يتم في غير منقصة ولاحطٍ من شأن المسلم المتخلق بهذا الخلق.

فالنبي ﷺ هو القائل فى هذا المعنى: «طوبى لمن تواضع فى غير منقصة وذل فى نفسه من غير مسألة»(١).

٤ – ونبى الأمة وزعيمها بل وسيدها كان إذا مرّ على طائفة من الصبيان يتلطف معهم بعد أن يسلم عليهم ويطيب خواطرهم ويمسح على رءوسهم شفقة بهم وحنواً عليهم وبثاً لروح التواضع فيهم وتنفيراً –لهم بالفعل والقدوة– عن روح الكبر والتعالى ليشبوا على هذا السلوك وتتعود نفوسهم على هذا الخلق «فمن شب على شيء شاب عليه»(٢).

٥ – ولم يكن ﷺ فى ريادته وزعامته وسيادته فى أمته ليتأبى على المضى فى حاجة من يحتاج إليه مهما كان شأن هذا المحتاج حتى لو كان هذا المحتاج –كما تنقل إلينا الروايات الصحيحة– جارية من جوارى المدينة فى أيامه ﷺ إذ كان يذهب مع الأمة فى أى مكان تأخذه إليه لينجز لها حاجتها دون من ولا تأفف(٣).

---

(١) الترغيب (٤ / ١٤) من حديث ركب المصري وعزاه للطبراني.

(٢) وهذا المعنى من حديث متفق عليه.

(٣) أخرجه البخاري.

فما أبعد هذا المثل وما أرفع هذا النموذج عما نراه ونعايشه من النماذج والأمثلة في عصرنا بين الراعي والرعية على كل المستويات السياسية والاجتماعية.

## نماذج من تواضع الصحابة والتابعين وغيرهم من الصالحين :

فإذا ما انتقلنا إلى كبار الصحابة وهم الطبقة الأولى للتلقي من النبي ﷺ فالتابعين-فالمقتدين بهم من صالحي المؤمنين وأئمة المسلمين على اختلاف مشاربهم لوجدنا كثيراً من المعاني الرفيعة التي تضيف أبعاداً أوسع، ومساحات أكبر حول مفهوم هذا الخلق وقيمته.

١ - ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما صدر عن عائشة أم المؤمنين وهي ركن من أقوى وأثبت أركان بيت النبوة حين لم تجعل التواضع عبادة فقط وإنما رأت أنه من أفضل العبادات إن لم يكن أفضلها، وحذرت السلمين من الغفلة عنه.

وإنما كان التواضع أفضل العبادات كما ترى السيدة عائشة لأنه يتخللها جميعاً، ويكون قاسماً مشتركاً بينها قاطبة بحيث إذا تجرد العمل -دينياً كان أو دنيوياً- من التواضع والاستكانة والتطامن في غير ضعف كان عملاً أجوف وقد يرد على صاحبه ومن هنا كانت خطورته، ومن هنا أيضاً كانت قيمته وأثره على مكانة صاحبه عند الله وعند الناس.

فـى كل ذلك قالـت السيدة عـائشة رضى الله عنها: «إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات التواضع».

٢ - ولذلك ذكـر يوسف بين أسـبـاط -رضى الله عنه- أن قليـلاً من التواضع يكفـى عن كثير من الجـد والعمل؛ لأن الأعمـال التى تقوم على أساس مـن التـواضـع إنمـا هـى أعمـال تستـتبع البركـة وتجلب الخير لأصحابها فكـان -رحمه الله- يقـول: «يجـزى قليـل الورع من كثيرالعمل، ويجزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد».

٣ - ولكن الفضيل بـين عيـاض يرحـمـه الله- يشـير إلى مـعنـى دقيق لخلق التواضع.

ذلك أن المرء ينبـغـى أن يطلـب الحـق حيـث كان ولا يعنيه منزلة من يتلقـى الحـق عنـه حتـى ولو كان الأقل منزلة أو الأصغر سناً فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق به.

وذلك لأن الحـق يطلـب لذاتـه فـهو فـى كل مـجال غاية ومقصد. ولذلك حـين سـئـل الـفـضـيل -رحـمـة الله- عـن الـتـواضـع قــال: «أن تخـضع للحـق وتنقاد له ولو سمعته من صبى قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته».

٤ - أمـا عـبـد الله بن الـمـبـارك -رضـى الله عنـه- فـيفـتـح لـنـا زاويـة أخـرى نطـل بهـا علـى جـانـب مـخـتـلـف لهـذا الخلق الكريـم فيذكر أنه علـى المؤمـن أن يضـع نفسـه دائـمـا فـى مرتبـة من هو أقل

مرتبة منه فى شئون الدنيا وحظوظها، ويرى أن لذلك أثراً عملياً عظيماً على علاقة المؤمن بأخيه فى الدين؛ وذلك أن يرى المؤمن أخاه بالمثال العملى أن تقدمه عليه فى حظوظ الدنيا لايجعل له فضلاً عليه، ولا يمنحه منزلة أعلى من منزلته عند الله على وجه الخصوص.

ولكن ما علاقة المؤمن المتواضع بمن هو أرفع منه منزلة وأعظم منه حظاً فى الدنيا؟

فى هذا يذكر ابن المبارك مبدأ جليلاً يجعله أساساً لتلك الصورة، فعلى المؤمن حينئذ كما يرى ابن المبارك أن يقدم نفسه على صاحب الحظ الأعظم والدرجة العليا، وأن يرفع منزلته فوق منزلته.

والمقصد من ذلك أن يريه بالمثل أنه لم يرفعه إلى هذه المنزلة الدنيوية إلا فضله ومنزلته عند الله.

وهناك غاية أخرى من تجسيد هذه الصورة وتحقيق هذا المبدأ وبخاصة إذا كان صاحب المنزلة الدنيوية العليا والدرجة الأرفع أبعد عن التواضع وأقرب إلى التكبر والتعالى فإن سلوك المؤمن المتواضع حين يتقدم على مثل ذلك ويتطاول عليه نوع من التحجيم لمثل هذا الشخص وكشف له عن حقيقته ولو من التهوين لشأنه عله يرعوى ويعود إلى طبيعته التى يرضى عنه فيها ربه.

ولعل هذا المعني هو ما قرره الحديث الشريف عن النبيﷺ

قال: «إذا رأيتم المتواضعين من أمتى فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار».

وهذا هو قول ابن المبارك فى هذه المعانى كلها حول التواضع. «رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك فى نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك فى الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل».

٥ - وقال كعب فى التواضع أيضاً: «ما أنعم الله على عبد من نعمة فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ورفع بها درجة فى الآخرة، وما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله إلا منعه الله نفعها فى الدنيا وفتح له طبقاً من النار يعذبه به إن شاء أو يتجاوز عنه».

٦ - ولما سئل عبد الملك بن مروان أيّ الرجال أفضل؟ فقال: «من تواضع عن قدره وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوة».

٧ - ودخل ابن السماك على هارون الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين إن تواضعك فى شرفك أشرف لك من شرفك فقال: «ما أحسن ما قلت. فقال: يا أمير المؤمنين إن أمرأ أتاه الله جمالاً فى خلقته، وموضعاً فى حسبه، وبسط له فى ذات يده فعف فى جماله وواسى من ماله وتواضع فى حسبه كتب فى ديوان الله من خالص أولياء الله. فدعا هارون الرشيد بدواة وقرطاس وكتبه بيده.

٨ – وقال أبو يزيد البسطامي : مادام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فقيل له فمتي يكون متواضعاً؟

قال: «إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه.

٩ – وقال الصديق أبو بكر رضي الله عنه: وجدنا الكرم في التقوى والغنى في اليقين، والشرف في التواضع»[1].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣ / ٣٣٣) بتصرف.

# فضيلة الإيثار

لا يبالـغ المرء إذا قـرر أن هـذه الفـضيلة لانظيـر لهـا فـى أية منظومـة أخـلاقيـة لأمـة مـن الأمم أو فـى دين من الأديان علـى مـدى تاريخ الإنسانية طـولاً وعرضـاً... وذلك قد يتضح إلى حد كبير إذا حاولنا أن نتناول مفهوم الإيثار من حيث كونه خلقاً عملياً فى الإسلام.

وبخاصة إذا فهمنا أن هذا الخلق قد يراد به: أن يبذل الإنسان ماله للغير مع شدة حاجته إليه.

وفـى هـذه الـصـورة يبـدو خلـق الإيثـار فـى أقصى درجـات السخاء والكرم فإن الشخص يكفيه -فـى نـظر الشرع والعرف وعـند الله وعـند النـاس علـى اختلاف أجناسـهم أن يجـود بما يمـلك للغير مع عـدم الحـاجـة إليه وهـو بذلك يسـتحق المدح علـى مـثل هـذا الفـعل لأنـه مـن الأسخياء عندئذ.

أما أن يجـود السخى بالنفيـس ممـا يملك مع حاجته أو شدة حاجته إليه فـهذه هى الدرجـة المثلى التى لا يتطاول إليـها إلا المنضوون تحت راية الإسلام.

وليـذكـر من شاء فى شرق الأرض أو غـربهـا، وفى شمـالهـا أو جنوبهـا نظـيـراً لهـذا الخلـق فـى مـعـاملة النـاس خـارج إطار الأمـة الإسلامية.

وإذا مـا أردنـا بـعـد ذلك أن نجـمـع مـعـنى الإيثـار فـى عـبـارة مـوجـزة بحـيـث تكـون أكـثـر تعـبـيراً عن حـقـيـقـتـه وأبـهـى تصـويراً لمضمونه ومحتواه فإننا نظفر بذلك فيما يمكن أن يسمى بتعريف للإيثار.

فقد قالوا عنه إنه: تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنياوية رغبة في تحقيق الخطوط الآخروية.

وتتسع دائرة الحظوظ الدنيوية بحيث لاتقتصر على المال أو الجاه أو المنصب الأدبى وإنما تشمل كل ما يمكن أن تطمح إليه النفس من هذه الحظوظ فى الدنيا.

وربما انحصرت الحظوظ الآخروية -التي يتغياها المتخلق بهذا الخلق ويصبو إليها من وراء فعله- فيما عند الله من الجزاء الأوفى ولاشك أن رضا الله من وراء ذلك هو غاية الغايات. وقد يكون من دوافع المؤمن إلى التخلق بخلق الإيثار هو قوة يقين المؤمن بالله، وشدة ثقته فى مدده وعطائه الذى لاينفد فى الدنيا أو فى الآخرة فهو الذى يتمثل نصب عينيه دائماً قول الله تعالي: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ (٢).

---

(١) سورة النحل: الآية (٩٦).

(٢) سورة الكهف: الآية (٤٦).

ومن دوافع المؤمن كذلك إلى سلوك هذا المسلك مع إخوانه من المؤمنين توكيد المحبة والمودة التي دعا الإسلام أبناءه إلى توكيدها دائماً في كل مبادئه وتعاليمه.

ولذلك امتدح القرآن الأنصار أول من جسدوا هذا الخلق عملاً وسلوكاً مع إخوانهم المهاجرين في آية كريمة لاتزال تتلى إلى يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١).

ولعل من أهداف الإسلام قبل ذلك وبعده من وراء ترسيخ هذا الخلق أن تعيش الأمة الإسلامية محصنة بسياج من الفضائل والمبادئ التي تمثل لهذه الأمة مقومات المنعة والبقاء.

ولا غرو فإن الإسلام وإن كان قد صفى هذه المبادئ وهذبها وصبغها بصبغته الربانية فإنها ليست مقطوعة الصلة بمنابعها الإنسانية.

من هنا جعل الإسلام فضيلة الإيثار وأخواتها من الفضائل الكريمة مدداً لا ينقطع لدعم العلاقات والوشائج النقية بين أبناء أمته حتى تكون حرية بوصف الخيرية الأفضلية على غيرها من الأمم حيث جاء ذلك في كتاب الله، وفي قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١).

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

ومسلك الإيثار الذى ينبثق عن نفس المؤمن بدون أدنى تكلف على نحو ما مرّ بيانه لاشك أنه من الفضائل العملية أو فى مقدمتها من جملة الكثير والكثير الذى تميزت به أمة الإسلام وأمة خاتم الأنبياء ﷺ عليه وسلم على غيرها من الأمم.

فالغاية دائماً -من وراء هذه الفضائل ومن أبرزها فضيلة الإيثار- هى وجه الله ورضاه لا دنيا يصيبها المؤمن ولاطمع فى مغنم مادى مهما كان حجمه وأياً كانت قيمته.

وقد يكون من قبيل الإيثار ما جاء فى مدح المؤمنين الذين يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً قائلين بلسان الحال «إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكوراً».

بل قد يكون مقام الإيثار فوق هذا المقام وبخاصة إذا أطعم هؤلاء المؤمنون الطعام فى غير حاجة إليه مع حبهم له. فالحاجة هى خصيصة المؤمنين المؤثرين بمالهم وأنفسهم لإخوانهم فى الدين.

وقد يكون فى قمة هذا المقام مسلك الصديق أبى بكر رضى الله عنه عندما تبرع بكل ماله، وحين يسأله النبىﷺ ماذا أبقيت لأولادك بعد فيجيب أبقيت لهم الله ورسوله.

## صور من خلق الإيثار في حياة النبيﷺ:

ولنتتبع الآن ما علمه النبىﷺ أصحابه وسائر الأمة من بعدهم من دروس الإيثار قولاً وعملاً وتشريعاً.

١ - فمن ذلك أن النبىﷺ قد أهديت إليه بردة ثبتت حاجته إليها وحين لبسها سأله أحد أصحابه أن يكسوه إياها فأجابه النبىﷺ ورجع إلى بيته وخلعها مع حاجته إليها وأعطاه إياها.

والحديث بطوله فى صحيح الإمام البخارى(١).

٢ - وقالت عائشة رضى الله عنها: «ما شبع رسولا اللهﷺ ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا»(٢).

وفى رواية «ما شبع منذ قدم المدينة ثلاث ليال تباعاً حتى قبض».

ولم يكن يمنع النبىﷺ دين ولا عرف من أن يشبع ولو من أدنى أنواع الطعام ولكنها كانت نبوة، ولم تكن ملكاً تجمع من الدنيا وزينتها ما شاءت.

ومن هنا كان الذى يدفع النبىﷺ إلى هذا العيش الشظف أن يرى أحداً من أمته محتاجاً وفى بيتهﷺ ما يؤثره به على نفسه ولا يفعل.

وهو المثل الأعلى لكل أبناء أمته كبيرهم وصغيرهم قويهم وضعيفهم غنيهم وفقيرهم.

٣ - ثم يخبرنا النبىﷺ بأن المؤمن الذى يشتهي شيئاً وتتشوق نفسه إلى حاجة من حاجاتها المادية ثم يقاوم نفسه فيحول بينها وبين

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب باب حسن الخلق والسخاء.

(٢) إحياء علوم الدين (٣ / ٢٥١) الإيثار وفضله.

تحقيق مأربها إلا كان جزاؤه مغفرة الله ورضوانه مصداق ذلك قول النبىﷺ «أيماامرئ اشتهى شهوة فردّ شهوته آثر على نفسه غفر له».

٤ - وجاء رجل إلى النبىﷺ وقال «إنى مجهود» أى أصابه الجهد والمشقة من شدة الجوع وسوء الحال فأرسل النبىﷺ إلى بعض نسائه عله يجد عندها ما يضيف الرجل به فتخبره أن ليس عندها إلا الماء واستقصى النبىﷺ جميع نسائه لنفس الغرض فلم يجد عندهن كذلك إلا الماء، ولو شاء النبىﷺ لملأ بيوتهن خيراً من خير الله ونعمه شأن الزعماء والرواد فى أقوامهم ولكنها النبوة التى تعفف عن الدنيا ومباهجها وتؤثر عليها الآخرة ونعيمها.

فيتجه النبىﷺ إلى أصحابه من الأنصار سائلاً إياهم من يضيف هذا الرجل الليلة.

فيبادر أحدهم قائلاً أنا يارسول الله ويرجح أن هذا الرجل أبو طلحة على ما ورد فى صحيح مسلم.

فنزل الضيف على بيته ويسأل زوجه إن كان عندها شيء يكرمون به ضيف رسول اللهﷺ.

وتفاجؤه أن ليس عندها إلا قوت صبيانها الصغار أو عشاؤهم. فتصطرع عند الزوجين العاطفتان:

عاطفة حب الله ورسوله وطاعتهما.

وعاطفة الأبوة وحب الأبناء وبخاصة الصغار الذين تشتد عاطفة الحب نحوهم فتتغلب العاطفة الأولى على الثانية بالرغم من كونها غريزة تصعب مقاومتها.

ولا يؤثم الشرع تغليبها وتقديم حاجة الأبناء على إكرام الضيف ولكن الزوجين آثرا إكرام الضيف إذ يبدو أن حاجة الأبناء للطعام لم تكن ماسة بالقدر الذى تتوقف عليها حياتهم وإلا لوجب تقديمها على حاجة الضيف وإكرامه ولذلك قال أبو طلحة لإمرأته فى هذا المشهد «عللى أطفالك بشيء وإذا أرادوا العشاء فنوميهم، وإذا دخل ضيفنا فاطفئى السراج وأريه أنا نأكل، فقعدوا وأكل الضيف، وباتا طاويين أى خالية بطنهما من الطعام جائعين لم يأكلا، فلما أصبح غدا أبو طلحة على النبى ﷺ وأخبره بما حدث أو أخبر الوصى النبى ﷺ بذلك.

فقال له النبى ﷺ : لقد عجب الله من صنعكم بضيفكما الليلة» أى رضى الله عن صنيعكما الليلة وجزاكم عليه بالثواب الجزيل فى الآخرة إن شاء الله تعالى.

وهكذا يبرز خلق الإيثار فى أبهى صوره من ذلك الأنصارى وأهله ويباركه النبى ﷺ ويرضى الله عنه ويجزى عليه خير الجزاء.

٥ - وقال ابن عباس قال النبى ﷺ للأنصار يوم بنى النضير: «إن شئتم قسمت للمهاجرين من دياركم وأموالكم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة

وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم من الغنيمة شيئاً، فقالت الأنصار: بل نقسم لإخواننا من ديارنا وأموالنا ونؤثرهم بالغنيمة، فنزلت ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (١).

أثر توجيه النبي ﷺ فى هذا الخلق عند الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

١ – وهذه عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها تضرب مثلاً رائعاً فى خلق الإيثار يظهر أثره فى الدنيا ويعجل الله لمكافأتها عليه دون أن ينقص ذلك من أجرها فى الدار الآخرة شيئاً.

وذلك حين جاءها مسكين يسألها وهى صائمة وليس فى بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها، أعطيه إياه؛ فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه، فقالت أعطيه إياه قالت: ففعلت: قالت: فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يهدى لنا: شاة وكفنها(٢) فدعتنى عائشة فقالت: كلى من هذا، فهذا خير قُرصك.

وعائشة –رضى الله عنها– فى فعلها هذا من الذين أثنى الله عليهم بأنهم يؤثرون على أنفسهم مع ما هم فيه من الخصاصة.

٢ – وقال ابن عمر –رضى الله عنه– أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال: إن أخى فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا.

---

(١) سورة الحشر: (٩).

(٢) المقصود بكفن الشاة: أن بعض العرب كانوا يأتون إلي الشاة أو الخروف إذا سلخوه فيغطونه كله بعجين البُرّ وكذ به ثم علقوه في التنور، فلا يخرج من ودكه شيء إلا في ذلك الكفن، وذلك من أطيب الطعام عندهم.

فبعثه إليهم فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات حتى رجعت إلى الأول. وإذا كان هؤلاء قد آثر كل واحد منهم أخاه على نفسه مع شدة حاجته وحاجة عياله إلى رأس الشاة هذه فإن أبلغ من ذلك وأوقع فى النفس الذين آثر كل واحد منهم أخاه علي نفسه لا مع شدة الحاجة فقط بل ومع الاشراف على الموت كذلك يتبدى ذلك واضحاً فى المشهد الذى صوره لنا حذيفة العدوى حيث

٣ – قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى –ومعى شيء من الماء– وأنا أقول إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به فقلت له: أسقيك، فأشار برأسه أن نعم، فإذا أنا برجل يقول آه، آ فأشار إليَّ ابن عم أن انطلق إليه، فإذا هو هشام ابن العاص فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم فسمع آخر يقول : آه، آه فأشار هشام أن انطلق إليه فجئته فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات.

٤ – وهذا عبد الله بن جعفر تستفزه وتهيجه إلى شجونه صورة من صور الإيثار تمثلت بين غلام أسود يعمل فى نخل لسيده، وبين كلب أقبل عليه جائعاً فرمى إليه بقرص فأكله ثم رمى إليه الثانى والثالث فأكله وعبد الله بن جعفر ينظر إليه فى دهشة وعجب مما يرى فسأل الغلام: كم قوتك كل يوم؟ قال له الغلام ما رأيت قال له عبد الله: فلم آثرت به هذا الكلب على نفسك؟

قال الغلام: ما هذه الأرض بأرض كلاب ومعنى ذلك أنه جاء من بعيد جائعاً فكرهت أن أشبع وهو جائع قال له عبد الله فما أنت صانع اليوم أي بدون حصتك من القوت. أجابه الغلام أطوى يومي هذا.

فقال عبد الله بن جعفر وقد تأججت عاطفته الدينية أألام على السخاء؟

إن هذا الغلام لأسخى مني.

وكان رد فعله المباشر أن اشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات وأعتق الغلام ووهبه الحائط وما فيه وهذه صورة أخرى تجسد خلق الإيثار وقد بلغت بهذه الأمة منزلة لم تبلغها أمة من الأمم السابقة عليها في تاريخ الإنسانية.

٥ - فقد حكي سهل بن عبد الله التستري رحمه الله -قال موسى عليه السلام: يارب أرني بعض درجات محمدﷺ وأمته فقال: يا موسى إنك لن تطيق ذلك ولكن أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضلته بها عليك وعلى جميع خلقي قال فكشف له عن ملكوت السماوات فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى فقال يارب بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة قال: بخلق اختصصته به من بينهم وهو الإيثار، يا موسى لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحييت من محاسبته وبوأته من جنتي حيث يشاء.

٦ – وهنالك صورة رائعة للإيثار ظهرت من خلال اختبار عمر بن الخطاب –رضى الله عنه– لبعض أصحابه وهم من خيرة صحابة رسول الله ﷺ وذلك حين أخذ رضى الله عنه أربعمائه دينار وبعث بها غلاماً له إلى أبى عبيدة بن الجراح وقال له: تلكأ ساعة فى البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها، فذهب الغلام إلى أبى عبيدة وقال له: إن أمير المؤمنين يقول لك: اجعل هذه فى بعض حاجتك.

فقال أبو عبيدة: وصله الله ورحمه ثم قال تعالى ياجارية اذهبى بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها.

فرجع الغلام إلى عمر بن الخطاب –رضى الله عنه– فأخبره بما حدث فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل. وقال عمر للغلام إذهب بهذا إلى معاذ ابن جبل، وتلكأ ساعة فى البيت حتى تنظر ماذا يصنع؟

فذهب الغلام بها إلى معاذ بن جبل –رضى الله عنه– وقال له: إن أمير المؤمنين يقول لك: اجعل هذه فى بعض حاجتك.

فقال معاذ بن جبل: رحمه الله ووصله. وقال معاذ للجارية اذهبى إلى بيت فلان بكذا وبيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا، ولم يبق فى الخرقة إلا ديناران قد جاء بهما إليها.

فرجع الغلام إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فأخبره بما حدث من معاذ فسر بذلك عمر وقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض.

وروى نحو ذلك عن عائشة رضى الله عنها فى إعطاء معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه إياها عشرة ألاف دينار.

قال الإمام القرطبى تعليقاً على هذا: فإن قيل: وردت أخبار صحيحة فى النهى عن التصدق بجميع ما يملكه المرء؛ فقيل له: إنما كره ذلك فى حق من لا يوثق منه الصبر على الفقر، وخاف أن يتعرض للمسألة إذا فقد ما ينفقه، فأما الأنصار الذين أثنى عليهم بالإيثار على أنفسهم، فلم يكونوا بهذه الصفة، بل كانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [1]. وكان الإيثار فيهم أفضل من الإمساك.

والإمساك لمن لا يصبر ويتعرض للمسألة أولى من الإيثار[2].

(١) سورة البقرة في الآية (١٧٧).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩ / ٥٥٩).

# فضيلة الصدق

يكفى فى الوقوف على قيمة فضيلة الصدق أن من تحلى بها فقد تخلى بلاشك عن أحط الرذائل شأناً ألا وهى الكذب.

وإنما كان الكذب كذلك لأنه يتنافى مع كمال الرجولة، ويتعارض مع سطوة الشجاعة.

فالمرء الذى يتعاطى الكذب لاشك أنه يخفى وراءه جبنه وضعف شكيمته؛ لأنه لايستطيع أن يواجه الحقيقة أو يتفاعل مع أنماط الناس وظروف الحياة بوجهه الحقيقى، فهو إذن غير قادر على أن يثبت ذاته أو يحقق شخصيته أو يبرز له مكانة بين أقرانه فى مجتمعه الذى يحيا فيه.

فإذا أردت أن تحدد ماهية المنافق فارجع بنفاقه إلى أصله الحقيقى وهو الكذب؛ لأن الوجه الذى يظهره المنافق للناس إنما هو قناع كاذب يخفى وراءه شيئا مختلفاً.

فالنفاق كذب على الناس وإن كان الله تعالى يعلم سريرة المنافق وحقيقة أمره.

ولذلك خاطب الله نبيه بقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾(١)

وإذا كان النفاق كذباً على هذا النحو فإن الجبن كذب كذلك فغير

---

(١) سورة المنافقون الآية (١).

خفى على أدنى متأمل أن الجبان أيضاً لايواجه الناس على اختلاف مستوياتهم بحقيقة ما فى نفسه.

ومن هنا كان الصدق مظهراً من مظاهر الرجولة والقوة والشجاعة فالإنسان الصادق هو الذى يستطيع أن يواجه العالم كله بحقيقة أمره ودخيلة نفسه مهما كانت ردود الأفعال وأياً كانت العواقب لأن الحق غايته ولأنه اختار أن يتحرر من كل قيود العبودية إلا لله.

فمهما واجه الإنسان الصادق من المتاعب والمشاق فإنه لا يخشى فى سبيل هدفه إلا الله.

ولذلك امتدح الله من المؤمنين رجالاً صدقوا عهدهم مع الله وضحوا بالنفس والمال فى سبيل الله ومن يصدق مع الله يصدق مع الناس ويصدق مع نفسه لأن الكذب لامكان له مع صحيح الإيمان وصادق اليقين.

وهذا ما تضمنته الآية الكريمة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾(١)

ويكفى فى قيمة الصدق وفضله أن وصف الصديقين مشتق منه وأن الله وصف الأبياء به فى معرض المدح والثناء.

فمدح نبيه إبراهيم عليه السلام حيث قال عنه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾(٢)

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٢٣).

(٢) سورة مريم الآية (٤١).

وقال تعالى في حق إسماعيل عليه السلام ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا ﴾(١)

وقال تعالى عن نبيه إدريس عليه السلام ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۞ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾(٢)

والصدق أساس الإيمان الصحيح لأن الإيمان تصديق بكل ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم على وجه الإذعان والقبول.

ونستطيع أن نزعم بلا أدنى مواربة أن الصدق والإيمان هما أخطر مقومات المؤمن أثراً.

نستشف ذلك من قول النبى ﷺ إن المؤمن لايكذب عندما سئل النبى ﷺ «أيكون المؤمن جباناً قال نعم قيل له أيكون بخيلاً قال: نعم قيل أيكون المؤمن كذاباً قال: لا»(٣)

ومعنى ذلك أن الكذب هو الرذيلة الوحيدة التى تتنافى مع كمال الإيمان والله تبارك وتعالى نفى الإيمان عن الكذب فيما دل عليه ظاهر قول الله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ (٤)

(١) سورة مريم الآية (٤٥).
(٢) نفس السورة الآيتان (٥٦،٥٧).
(٣) الترغيب والترهيب ٢٨/٤.
(٤) سورة النحل الآية (١٠٥).

**حقيقة الصدق ومراتبه:**

أما عن حقيقة الصدق فنحن لانكاد نحصرها في عبارة واحدة وذلك لتعدد أنواع الصدق الذى يقتضى تعدد مفاهيمه ومعانيه.

ومراتب الصدق تتضح من خلال تفاوت أنواعه التى سنذكرها الآن:

**وإذن فمراتب الصدق وأنواعه ستة وهى:**

١ - صدق فى القول.

٢ - صدق فى النية والإرادة.

٣ - صدق فى العزم.

٤ - صدق فى الوفاء بالعزم.

٥ - صدق فى العمل.

٦ - صدق فى تحقيق مقامات الدين كلها.

والصديق من اتصف بكل هذه المعانى للصدق.

وتقل مرتبة المؤمن فى هذا الباب على قدر ما يتصف بشىء من هذه المعانى.

وعلى كلا فمن اتصف بشىء من هذه المعانى دون جميعها يستحق الوصف بأنه صادق.

**النوع الأول :**

صدق اللسان أو الصدق فى القول وذلك النوع يتعلق بالإخبار حقيقة أو حكماً.

**والخبر الحقيقى :**

هو ما احتمل الصدق والكذب لذاته ويكون ذلك فى القضايا المكونة من موضوع ومحمول أو لنسبة حكمية.

فإن طابـ الحكم فى القضية الواقع كان الخبر صادقاً.

وقد يكون الكلام إنشاءاً فى الصورة وهو في الحقيقة خبر وهذا هو المقصود بقولنا «أو حكماً» فى التعريف.

**ومثالـه :**

أن تقـول لشـخص: «اسـقـنـى» فـهـذا إنـشـاء- لأنـه طـلـب صورة إلا أنـه خـبـر حكـماً لأنه فـي حكم قـولك: أنا عطشـان والكـلام مبسوط فـى موضعـه مـن كتب المنطق وغيرها فليرجع إليـه مـن شـاء.

وعلى كل حال إذا جاء الكلام الخبـرى مطابقاً للواقع على مـا هو عليه فهو صدق فى القول سواء تعلق بالماضى أو بالحاضر أو بالمستقبل ويدخل فيه الوفاء بالعهد.

والواجب على كل مـؤمن أن يحـفظ لسانه عن الكذب فـلا يقـول

ولانطق إلا صدقاً ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾(١) ومن هذا القبيل كذلك قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ (٢)

ويدخل فى تداعيات الصدق واتساع معناه كل قول يدعو إلى الحق ويدل عليه كالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر وغير ذلك مما يندرج تحت الأمر الإلهى لعباده بأن يقولوا قولاً معروفاً وأن يقولوا للناس حسناً، وما يماثل ذلك من الأوامر القرآنية والنبوية فى السنة الصحيحة كقوله ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت وقوله ﷺ لأحد أصحابه «أمسك عليك لسانك، إلى أن قال له معلماً ومربياً «هل يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسنتهم» فكل من حفظ لسانه عن أن يخبر عن الأشياء وخبراً غير مطابق للواقع فهو صادق عند الله وعند الناس.

هذا وقد يضطر المؤمن إلى الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه بعبارات تحتمل المعنيين أو عبارات تخفى وراءها نية الصدق مع مخالفة ظاهرها للواقع، وهذا ما يعرف بالمعاريض وهما جائزة شرعاً مع أنها مخالفة فى مدلولها للواقع.

---

(١) سورة التوبة الآية (١١٩).
(٢) سورة الأحزاب الآيتان (٧٠-٧١).

فقد قال النبىﷺ «إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب».

فهى تغنى من يلجأ إليها عن الكذب ولها مقاصد شريفة ونبيلة كمدارة الظلمة والحذر منهم ومخادعة الأعداء والكفار فى الحروب معهم.

فكان رسول اللهﷺ إذا أراد غزوة من الغزوات ورّى بغيرها تلبيساً على الأعداء وتحرياً لأسباب النصر والمحافظة على جند المسلمين. وليس ذلك وحاشاه أن يكون من الكذب فى شىء وهو فعل النبىﷺ مع أنه غير مطابق للواقع.

وقد رخص الشارع الحكيم فى الكذب إذا كان المقصد شريفاً والغاية نبيلة وذلك **فى ثلاثة مواضع**:

**الموضع الأول: فى الصلح بين اثنين متخاصمين.**

**الموضع الثانى: فى ترغيب الزوجة.**

**الموضع الثالث: فى مصالح الحرب.**

والصدق الكامل هو الذى يتحرز فيه الشخص عن المعاريض وعن الكذب المرخص فيه؛ لأن هذه الأمور لاتكون إلا من باب الضرورة.

**النوع الثانى من الصدق «هو صدق النية والإرادة»:**

ومرجعه إلى الإخلاص فى القول والعمل بمعنى أن لايكون للشخص باعث فى أقواله وأعماله إلا الله.

فقد يقول الشخص قولاً ويتلفظ بعبارة مطابقة للواقع ولكنها تخالف باطنه وما انطوى عليه سريرته، فيكون صادق العبارة واللفظ كاذب النية والإرادة، ويصح وصفه حينئذ بأنه كاذب بهذا الاعتبار.

ومن هذا القبيل أن الله سمى المنافقين ووصفهم بالكاذبين حيث قال تعالى: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ مع قولهم للنبي ﷺ «إنك لرسول الله» وهذا صدق في القول ولكنهم كذبوا في النية والإرادة الباطنة.

ومن هذه الصورة أيضاً هؤلاء الثلاثة الذين أشار إليهم حديث النبيﷺ عن أول من يسألون يوم القيامة وهم ثلاثة:

رجل أتاه الله العلم فيقول له الله تعالى ماذا صنعت بعلمك فيقول يارب كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال: فلان عالم ألا فقد قيل ذلك.

ورجل أتاه الله مالاً فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فماذا صنعت بمالك؟ فيقول يارب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك.

ورجل قتل في سبيل الله إلله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك.

قال أبو هريرة ثم خبط رسول اللهﷺ على فخذى وقال يا أبا هريرة أولئك أول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة».

وهكذا يرجع هذا المعنى للصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص فكل صادق فى نيته وقوله يسمى صادقاً ظاهراً وباطناً ولايسمى كذاباً لا من حيث الظاهر ولا من حيث الباطن.

**النوع الثالث من الصدق «صدق العزم»:**

وهو أن يكون للشخص قبل الاقدام على عمل من الأعمال عزمٌ صادقٌ على ذلك العمل.

**ومثاله:**

أن يقول الشخص فى نفسه إن رزقنى الله مالاً تصدقت به أو بنصفه مثلاً.

أو يقول فى نفسه أيضاً إن لقيت عدواً فى سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلنى.

أو يقول كذلك: إن أعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أظلم.

وهذا العزم يكون صادقاً بمقدار ما يكون قوياً وجازماً وتاماً.

فإن اعترى هذا العزم ميل أو أصابه تردد أو ناله شيء من الضعف لم يكن صادقاً ولم يوصف صاحبه بصدق العزيمة.

### ومن صور هذا النوع من الصدق:

قول عمر رضى الله عنه لأن أقدم فتضرب عنقى أحب إلىّ من أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضى الله عنه.

فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبى بكر رضى الله عنه وأكد ذلك بما ذكره من القتل.

### النوع الرابع من الصدق «صدق الوفاء بالعزم»:

والفرق بينه وبين النوع السابق أن الإنسان قد يعزم وتجود نفسه بالعزم فى الحال، ولا مشقة على الإنسان فى أن يعزم أو يعد، لكن تأتى مرحلة لاحقة تتحقق فيها الوقائع، ويحين وقت التمكن من الانجاز فتتغلب عليه شهوات نفسه، ويتسلط عليه شيطانه فيحرضه على الكسل والتقاعد فتنحل عزيمته ولايصدق ولايفى بوعده فلا يكون حينئذ صادقاً فى الوفاء بما عزم وما وعد أما إذا غلب شهوات نفسه وانتصر على شيطانه، ووفى بما وعد وعزم عليه كان صادقاً فى وفائه بعزمه فكان من المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ومن صور هذا النوع ما روى عن أنس رضى الله عنه: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول اللهﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول اللهﷺ غبت عنه، أما والله لئن أرانى الله مشهداً مع رسول اللهﷺ ليرين الله ما أصنع!! قال: فشهد أحداً فى العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا أبا عمرو إلى أين فقال: واها لريح الجنة إنى أجد ريحها دون أحد فقاتل حتى

قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر ما عرفت أخى إلا ببنانه.

فنزلت الآية الكريمة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية(١)

## النوع الخامس من الصدق «صدق العمل»:

وهو أن يجتهد الشخص فى عمله بحيث يجعله دالاً على حقيقة باطنه موافقاً لما فى سريرته، فإن خالف عمله ما انطوت عليه نفسه من الشهوات والإيرادات، فإن قصد بذلك إيهام الناس بحقيقته الظاهرة كان مرائياً واندرج تحت الذين ذمهم إليه فى قوله تعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢)

وإن لم يقصد بعمله المخالف لحالته النفسية الباطنة مرآة الناس كان كاذباً فى عمله.

فالصادق فى عمله هو من استوت سريرته وعلانيته أو كانت سريرته خيراً من علانيته، وباطنه خيراً من عمله الظاهر بحيث يكون هذا العمل دليلاً صادقاً على حقيقة باطنه.

ومن هنا كان يقول النبى ﷺ فى دعائه: «اللهم اجعل سريرتى خيراً من علانيتى واجعل علانيتى صالحة».

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٣.

(٢) سورة النساء: الآية ١٤٢.

وقال يزيد بن الحرث: إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور.

وقال عقبة بن عبد الغافر: إذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدى حقاً.

وقال عبد الواحد بن زيد كان الحسن إذا أمر بشيء كان أعمل الناس به وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ولم أر أحداً قط أشبه سريرة بعلانية منه.

وقال أبو يعقوب النهر جورى: الصدق موافقة الحق فى السر والعلانية. فإذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق.

## النوع السادس من أنواع الصدق:

الصدق فى مقامات الدين ومصطلح المقامات بصفة مبدئية مصطلح خاص بالصوفة ولكن ذلك لايمنع أنها حقائق دينية صحيحة يتقلب فيها المؤمن بحسب اجتهاده فى العبادة وجده فى العمل بشرط أن لاينفصل هذا الجهد والإجتهاد عن الإخلاص وصدق التوجه إلى الله.

والمقامات المشار إليها كثيرة منها:

الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب... إلخ

وهى مستقصاة فى كتب التصوف.

فكيف يتأتى الصدق فى هذه المقامات؟

إن لهذا المقامات مبادئ أو بدايات ولها حقائق وغايات فإذا وقع للعبد بعض مبادئها وصف بما حصل له منها. كما إذا حصل له مبدأ الخوف من الله أو بدايته فهو موصوف بأنه خائف من الله لكنه لن يكون صادقاً فى هذا الخوف إلا إذا استغرقته حقيقة ذلك الخوف فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطبق عليه اسم الخائف بسببه ولكنه خوف غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة. أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق فى سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه، وينقسم عليه فكره حتى لاينتفع به أهله وولده... كل ذلك خوفاً من درك الجذور.

وقل مثل ذلك فى سائر المقامات التى ذكرنا لك أمثلة منها.

ولا غاية لهذه المقامات إلا أن يدرك تمامها وليس ذلك بالأمر اليسير ولكن لكل إنسان منها حظ بحسب حاله وجده واجتهاده. فإذا قويت حاله فى هذا المقام أو ذاك وبلغ أقصى ما يمكن بلوغه من حقيقته بحسب طاقته سمى الإنسان صادقاً فى هذا المقام أو ذاك.

فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها ولذلك قال النبىﷺ لجبريل عليه السلام «أحب أن أراك فى صورتك التى هى صورتك فقال لاتطيق ذلك قال بل أرنى فواعده البقيع فى ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبىﷺ فإذا هو به قد سد الأفق يعنى جوانب السماء. فوقع

النبىﷺ مغشياً عليه، فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى فقال النبىﷺ ماظننت أن أحداً من خلق الله هكذاه.

فالصادق إذن فى جميع هذه المقامات عزيز ثم درجات الصدق لانهاية لها.



وقد يكون للعبد صدق فى بعض الأمور دون بعض فإن كان صادقاً فى الجميع فهو الصديق حقاً.

قال سعد بن معاذ ثلاثة أنا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف: ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسى حتى أفرغ منها، ولا شيعت جنازة فحدثت نفسى بغير ما هى قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها وما سمعت رسول اللهﷺ يقول قولاً إلا علمت أنه حق فقال ابن المسيب، ماظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا فى النبىﷺ فهذا صدق فى هذه الأمور.

وكم قوم من خيرة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ.

فهذه هى درجات الصدق ومعانيه والكلمات المأثورة فيه أكثر من أن تحصى فى هذا المقام. والله أعلم

تم إملاؤه فى الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة ألف وأربعمائة وخمس وعشرين للهجرة الرابع من شهر فبراير ألفين وخمسة للميلاد.

أ.د./ حسن محرم الحوينى